تم تحميل هذا الكتاب
من موقع الملفات الاسلامية
http://islamicfiles.net

روح العبادة
فى الإسلام

islamicFiles.NeT

بقلم
أ.د/ مبروك عطية
الأستاذ فى جامعة الأزهر
والداعية الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذى خلق فسوى ، وقدّر فهدى ، والصلاة والسلام على المبعوث بالهدى ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرا

وبعد

فلعلك حين تتدبر قول الله – تعالى – من سورة الحجر الآيتين (٢٨ ، ٢٩) :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٨ – ٢٩

تجد أن الله ﷻ لم يأمر ملائكته بالسجود لآدم إلّا بعد أن نفخ فيه من روحه ، أى لم يأمرهم بذلك حال كونه جسداً بلا روح ، وقد رأيت أن فى ذلك إشارة إلى أهمية الروح فى الوجود ، فى كل شىء ، فى النبات إذا اصفر ، وذهبت خضرته حصدناه ، وذهب من على وجه الأرض ليحل محله نبات جديد ، وفى الإنسان إذا طلعت روحه إلى بارئها دفناه فى التراب ، وكذلك الحيوان ، بل إن الداعية الذى يدعو بلا روح لا يستجيب له أحد ، ولا يستميل قلباً فى صدر مدعو ، وروح الداعية فى صدقه ، وفقه ، وبيانه ، ولينه ، ورحمته بالناس ، والتزامه بما يدعوهم إليه ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ هود: ٨٨

وما أمر رسول الله ﷺ عن شيء إلّا كان أول من يفعله ، وما نهاهم عن شيء إلا كان أول من ينتهى عنه ؛ فهو أتقاهم لله ﷻ وهو أخشاهم له

ولعلك تجد كثيراً من الذين يصلّون ، ويحفظون القرآن الكريم ، ويحجون ويعتمرون ، ويذكرون الله – تعالى – ويلبسون زى المسلمين يظلمون ، ويعتدون ، وربما تجاوزا ؛ ففعلوا المنكرات

وقد تجد من تزعجه هذه المشاهد المتناقضة ؛ فيضرب كفا بكف ، بل ربما تجد من تأخذه الحماقة إلى واد سحيق ، فإذا به يسب المتدينين ، ويلعن الملتزمين ، ويفضل غير المسلمين على المسلمين بعد أن يفضل الفاسقين من المسلمين على الملتزمين منهم

والحق أن هؤلاء ملتزمون بجسد العبادة فقط دون روحها ، ولو اقتبسوا من روح العبادة حياة لما رأيتهم على شيء من تلك القاذورات ؛ومن ثم كانت أهمية الموضوع (روح العبادة فى الإسلام) فما من عبادة فى الإسلام مشروعة إلّا ولها روح ، إذا دبت فى العابد وجدته كما قال الله- تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ الأنعام: ١٢٢ ، والنور آية وضوح ، وبرهان على صدق من أحياه الله ﷻ بدينه ، فهو يعبد الله وحده ، لا يتوكل على أحد سواه ، مستمسك بحبله المتين ، معتصم به ، ملتزم بما أمره به ونهاه عنه ، والنور قد ينطفىء للحظة لكنه لا ينطفىء العمر ، فالزانى ساعة يزنى ينطفىء فيه هذا النور ، لكنه بمجرد أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً يعود مضيئاً من جديد ، وربما يعود أقوى مما كان ؛ لأن ندمه على ما كان منه يدفعه إلى مزيد من الأعمال الصالحة ، التى يرجو أن يكفر الله بها سيئاته ، ورب ذنب أورث صلاحاً ، ورب طاعة أورثت غروراً ورياء كما قال العلماء من قديم

وكذلك شارب الخمر ، لا يشربها وهو مؤمن ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح ، فهو منطفئ ساعة شربها ، لكنه يعود إلى ضيائه بتوبته كذلك ، إنما المأساة مأساة من لا نور فى قلبه ، ولا نور فى سمعه وبصره ، ولا عن يمينه ولا عن شماله ، مأساة من قال الله فيهم : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ الكهف: ٥٧

وهم الذين ذُكّروا بآيات الله فأعرضوا عنها ونسوا ما قدمت أيديهم

ومأساة من اتبع هواه ، وأخلد إلى الأرض ، وصار للشيطان وليا ، فهو لا يصلي أبداً ، ولا يصوم أبداً ، ولا ينظر فى حج ، ولا فى زكاة ، وكل من يذكره يسأل الله له الهداية ، ويرجو له حسن الخاتمة ، مثل فلان الذى عربد عمره ، ونسى الله عمره ، وقبيل موته تاب وأناب ، وكان من الصالحين ،

فمن ذا الذى يحب أن يكون كذلك ؟

أى من ذا الذى يحب أن تضرب فيه الأمثال ، أمثال فلان الذى أفسد فى الأرض عمره ، ثم تاب الله عليه قبل موته ، وفلانة التى كانت علماً على الإثارة الجنسية ، وغيرها ، ثم تاب الله – تعالى – عليها فى آخر عمرها

فمن الذى يضمن أن يكون حاله فى نهاية عمره كحال هؤلاء التائبين ؟

وعلى أية حال هناك فرق كبير بين مَنْ يرتكب المعصية ، ويتوب ، وبين من هو منغمس فى المعاصى ، منخرط فيها فينام عليها ويصحو ، والناس ما بين هذا وذاك ؛ إذ لا عصمة إلا لنبى ، وقد ختمت النبوة بأشرف الخلق محمد سيدنا ﷺ

وقد بين النبى ﷺ هذا المعنى (روح العبادة) فى أحاديث كثيرة ، منها حديث :

أتدرون ما المفلس ؟

فالمفلس من كانت له صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج لكنه شتم هذا ، وسفك دم هذا ، وأكل مال هذا ، والنتيجة أنّ من ظلمهم يحصلون على ثوابه من تلك العبادات فإن نفذت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ، وطرح عليه ، ثم يلقى به فى النار

إن المفلس إذا أدى العبادة جسداً ، ولو أفاد من روحها لما شتم ولما ظلم ، ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ : (رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش)

وذلك لأنه عرف الصوم جسداً ، ولم يعرفه روحاً ، وجسد الصوم الإمساك عن شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، أما روحه فتتمثل فى حسن الخلق ، وترك المنكرات ، وتقوى الله ﷻ

وقد جاء أقطع ضيفاً على أبى بكر ﷺ فأنزله فى منزله المخصص للضيافة ، ومرّ عليه بالليل فوجده يصلي ، فمر عليه مرة أخرى ؛ فسمعه يقرأ القرآن ؛ فقال الصديق ﷺ : ما ليلك بليل سارق ، فلما أصبح الصبح وجدوا أن ذهب أسماء – رضى الله عنها – قد سرق ، ووجد الصديق هذا الأقطع يدعو ، والناس حوله يقولون : آمين ، سمعه يقول : اللهم العن من سرق البيت الصالح ، والناس يقولون : آمين ، وجاء يهودى صائغ ، وقال : ما هذا ؟ وعرف القصة ؛ فقال : هذا الأقطع جاءنى به ، وباعه لى ؛ واعترف الأقطع ، فقال له الصديق : والله ما عرفت الله ، وأمر به فقطع مرة أخرى

وكثير من الناس كما قال الصديق ﷺ لا يعرفون الله على القياس ، حيث يركعون ويسجدون ، ويصومون ، ويتلون الكتاب ، ويسرقون ، ويفعلون المنكرات ، وسبب ذلك فيما أرى أنهم لم يقتبسوا من العبادة روحها

وقد رأيت حقيقة مهمة فى هذا العمل هى أن الله ﷻ لم يقل فى كتابه العزيز : (إن الله مع المصلين ، ولا مع الصائمين) وإنما قال :

(مع المتقين) و (مع الصابرين)

(والذين هم محسنون)

ومعنى ذلك أن المصلي والصائم والحاج لن تكون لهم معية عناية ورعاية إلا إذا كان لهم من هذه العبادات روح ، تتمثل فى التقوى والإحسان والصبر والإيمان كأن المصلي – مثلاً فى الطريق إلى معية الله ﷻ وقد يصل أو لا يصل ، الأمر فى الوصول وعدمه إلى روح العبادة ، إن تحققت وصل إلى معية الله ، وإن لم تتحقق لم يصل إلى تلك المعية التى هى غاية كل مسلم ، وإن شئت الإنصاف قلت : غاية كل عاقل

وقد رأيت أنْ أجعل هذا الكتاب فى ثلاثة فصول :

الأول : روح العبادات المشهورة

والثانى : العبادة التى لم ينص عليها الفقهاء

والثالث : روح الدعاء

وأسأل الله أن ينفع بهذا العمل المسلمين ، وأن يحقق لى الرجاء حتى أرى تلك الروح فى نفسى قبل إخوانى ، إنه سميع قريب مجيب ،

أ.د / مبروك عطية
الأستاذ فى جامعة الأزهر
والداعية الإسلامي

الفصل الأول

روح العبادة المشهورة

روح الصلاة

فرضت الصلاة ليلة المعراج ، فى أعلى علو ، حيث رأى رسول الله ﷺ من آيات ربه الكبرى ؛ إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى

والله ﷻ يقول : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ طه: ١٤

والصلاة بمعناها الأدائى معروفة ، من طهارة بالماء أو بالتراب (التيمم) ومن القيام والتلاوة ، والركوع ، والسجود ، أى من تكبيرة الإحرام إلى التسليم ،

لكن روح الصلاة تتمثل فيما يأتى

أولاً : الطهارة

فكما يتطهر المصلي بغسل أعضاء الوضوء يتطهر كذلك معنويا ، فالله يُحِبُّ التوابين ويحب المتطهرين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

البقرة: ٢٢٢

التوبة والطهارة بعد الوضوء

روى مسلم والترمذى من حديث عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأشهد أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاء)

ولابد أن نعرف أنّ الدعاء فى الإسلام ملتبس بالعمل ، فالذى يقول : اللهم اجعلنى من التوابين عازم على التوبة ، وليس منخرطاً فى المعاصى ، والذى يقول :

واجعلنى من المتطهرين ، يقولها ، وقد تطهر ، وليس من العقل والحكمة أن يكون على طهارة أعضاء ، ولا يكون على طهارة قلب ، وصفاء نفس ، إنه تناول قليلاً من الماء ، غسل به أعضاء الوضوء ؛ فتطهر ، وصار مؤهلاً للدخول فى الصلاة ، وسوف يقوم لله رب العالمين ، والقيام من أركان الصلاة للقادر عليه ، وليس من العقل كذلك أن يقيم المرء الصلاة ، ويقوم فيها إذا كان قادراً على القيام ، ولا يقيم سلوكه وفق أحكام شريعته ، ومبادئ دينه ، أى ليست هناك مفارقة بين إقامة الصلاة على الوجه الأتم ، وإقامة الدين فى الحياة إلا عند مَنْ يركع ، ويسجد ، ولا يدرك روح الصلاة

احترام الوقت وأفضلية أوله

إذا قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

النساء: ١٠٣

إن للصلاة أولاً و آخراً كما روى الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقد أجمع العلماء على أفضلية أوله ، على عكس ما عليه المصلون الذين ربما حرصوا على أول الوقت فى الصلاة ، ولم يحرصوا عليه فى أعمالهم ، ووعودهم ، الأمر الذى أدى إلى ما نحن عليه من تخلف وتأخر ، ونزاع وفقدان ثقة .

يقول أحد الناس لأخيه الذى رآه متعجلاً على موعد بينه وبين مدير شركة ما :

- ما موعدك معه ؟

قال : العاشرة صباحاً

قال : على رسلك ، فلن يصل قبل الحادية عشرة

ما عاد عند الناس من ثقة فى المواعيد المضروبة

وترى الموظفين يأتون متأخرين عن مواعيد أعمالهم دون عظيم تأثر ، وإذا كلمت أحدهم قال لك : ما جاءت من نصف ساعة ، إنها الموصلات ، إنه النوم الذى هجم عليّ ، بعد صلاة الفجر ، ولو حرص على أول الوقت فى عمله حرصه على أوله فى صلاة الفجر لتغير وجه الحياة ، وقس على ذلك مواعيده مع أقاربه ، ورفاقه ، وأصدقائه ، إنه لا يلتزم ؛ لأنه لم يأخذ هذا الدرس من الصلاة روحاً فيها ،

كانت مواعيد الناس مرتبطة بالصلاة ، كما كانت أوقاتهم تقدر بالأعمال ، كما جاء فى حديث أنس أن زيد بن ثابت ،قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ فسُئل عن الوقت بين السحور وبين الفجر ، فقال ﷺ : قدر قراءة خمسين آية ، والفقهاء يذكرون أن الوقت الذى يحسن أن يبقى فيه المشيعون للجنازة قدر ذبح جزور ، وسلخه وتوزيعه ، وأن الوقت بين الآذان والإقامة قدره صلاة ركعتين ، أو أكل إنسان وجبة خفيفة ثم رأينا تغيراً فى ذلك، فمرة قال الناس : آتيك مغرباً ، أو بعد الظهر ، ومن قال : بعد الظهر اتسع وقته إلى العصر ، لكنه يقول لك : آتيك بعد الظهر ، ويصل إليك مغرباً ،

ومرة يقول لك : آتيك بعد انتهاء المباراة ، ويأتيك بعدها بزمان طويل أيضاً ، وهكذا، فضلاً عن إضاعة الوقت دون عمل جاد ، كالذى يحضر إلى عمله قبل أن يحضر الناس ، لكنه لا يعمل شيئاً ، والغريب أنه يقول لك : أنا هنا منذ الساعة السابعة صباحاً؛ فهلا قلت له : وماذا فعلت منذ أتيت مبكراً إلى الآن ؟ إنه لم ينجز شيئاً ، ولم يعمل عملاً ذا بال فقط يزهو ويفخر بأنه أول من حضر من السادة الموظفين ، وربما قال : أنا أول من يحضر ، وآخر من ينصرف ، وما بين الحضور والانصراف وقت طويل لم يستغل ، وعمر يضيع دون فائدة

وقد روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه من حديث أنس ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً)

وما أكثر الذين يعملون كعمل هذا المنافق الذى يدرك العصر قبيل غروب الشمس ، ضيع أول الوقت ووسطه ، وصلاها فقرأ قبيل الغروب ، بلا تأن وخشوع ، وذكر الله ﷻ

- انظر إلى ذلك الطالب الذى لا يستذكر علومه ومواد دراسته إلا قبيل الامتحان بأيام قليلة أو ساعات
- وانظر إلى تلك المرأة التى لا تعد طعام الإفطار فى رمضان إلا قبيل المغرب بعد قيامها من نوم ، أو مشاهدة فيلم ومسلسل
- بل انظر إلى هذا الأستاذ الذى لا يعد بحوث ترقيته إلى الدرجة الأعلى إلا قبيل استحقاقه تقديم بحوثه ،
- بل انظر إلى دول ومؤسسات عالية لا تصلح من شأن شيء إلا بعد وقوع كارثة
- بل انظر إلى ملايين الأفراد الذين لا يعدون لأمر عدة إلا فى اللحظات الأخيرة ، وأقل مقال على ذلك أن الفرد من هؤلاء لا يعد ثيابه لغده ، وإنما يتركها ليبحث عنها بسرعة قبيل خروجه ،فإذا به يلقى بالتبعية على خادمه ، أو ابنته ، أو زوجته ، أو والدته مع أنه لم يأمر واحداً منهم بإعداد شيء معين له

لا شك أن إعداد العدة قبل الأوان من روح الصلاة فى هذا الدين ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى المنافقين : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ التوبة: ٤٦

فهذا حالهم فى الجهاد كما هو حالهم فى الصلاة ، فصدق الله ورسوله

روح الجماعـــة

وغنى عن البيان أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد لما جاء فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : (صلاة الجماعة تفضل عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة)

وإنما فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد لأمور كثيرة أهمها :

١ - تعظيم شعيرة الصلاة

٢ - واجتماع الناس عليها يغيظ الكفار

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ الفتح: ٢٩

٣- ولأنها تؤدى بنشاط وهمة

٤ - ولأنها درس قيادة ، فالإمام وافد المصلين إلى الله ، وهو أعلمهم وأقرؤهم ، وهم لا يركعون إلا إذا ركع ،

ولا يسجدون إلا إذا سجد ، وكذلك يتدبرون فى الحياة

٥ - ولأن الحاضر يسأل عن الغائب ، روى مالك فى الموطأ أن عمر ﷺ افتقد رجلاً فى صلاة الفجر اسمه سليمان ، فذهب إلى داره ، ووجد أمه واسمها الشفاء ، فسألها عنه ؛ فأخبرته بأنه أقام الليل فغلبته عيناه (نام) فقال عمر : لصلاته الصبح معنا خير له من قيام الليل كله

٦ - وأن السنة فيها التخفيف ؛ لقوله ﷺ فيما رواه البخارى وغيره : (من أم بالناس فليخفف ؛ فإن منهم المريض والمسافر وذا الحاجة)

ولا شك أن روح الجماعة المستفادة من روح الصلاة تزيد الناس قوة ، وتعاوناً على البر والتقوى ، فيد الله مع الجماعة ، ولابد للجماعة من أمير أو كبير ، حتى

يتسنى لهم الانطلاق فى حركة الحياة على نظام ، لا على فوضى ، والجماعة تبث روحها فى آداب التخاطب والحوار ، حيث يتكلم واحد ، وينصت الآخرون

وليس من روح العبادة أن تكون جماعة فى الصلاة أشتاتاً بعدها !

القبلـــة

واستقبال القبلة من شروط صحة الصلاة ، قال الله – تعالى - : ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة: ١٤٤

ومن روح الصلاة فى هذا أن تكون للمسلمين جميعاً قبلة واحدة بعد الصلاة ، أى هدف واحد ، فمشربهم واحد ، وهدفهم واحد ، وهو إقامة الدين ، وكما أنه لا يتنازع الناس عند الصلاة فى القبلة كذلك عليهم ألا يتنازعوا بعد الصلاة فى قبلة الحياة ، وهى نصرة هذا الدين ، ولن تنصر الأمة الإسلامية الدين إلا إذا اتحدت قبلتها فى الحياة كما هى متحدة فى الصلاة ، وقد قال الله – تعالى - : ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنفال: ٤٦

وقد بالغ الناس فى التنازع إلى حد لم يعد يخفى على أحد ، صار المسلمون فرقا وأحزاباً ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وصرنا نسمع دعوات فى الخلاف ، ومدحه ، وأنه تنوع ، وأنه من سنن الله فى خلقه ، وغير ذلك ، وكأن هذه الدعوات اتجاه صريح فى توسيع رقعة الخلاف ، ودحض قوى الأمة ، ولا بأس بالخلاف ، وتعدد الآراء، متى انتهى الجميع إلى رأى واحد ، وقرار واحد ، ألست ترى خلاف الصحابة مثلاً فى أسارى بدر ، حيث رأى الصديق ﷺ العفو ، ورأى عمر ﷺ قتلهم ، وأخذ ﷺ برأى الصديق ، فما غضب عمر ، وما كون حلفاً مضاداً ، ولا ثورة مضادة

وكان عمر ﷺ يرغب أن يكون مبعوث رسول الله ﷺ مع نصارى نجران ، يحكم بينهم ، وقال : ما تمنيت الإمارة إلا فى ذلك الوقت ؛ لقول النبى ﷺ لهم : سأبعث معكم القوى الأمين ، وأخذ يتطاول فى الصف إثر صلاة العصر حتى يراه ﷺ ويقول : قم يا عمر ، لكنه ﷺ قال : قم يا أبا عبيدة ، فما حمل قلب عمر ﷺ موجدة من أبى عبيدة .

وقد اختلف الناس تحت إمرة عبد الله بن حذافة ، حين أمرهم بجمع حطب ، وجعله ناراً ، وأن يدخلوا فيها ، فرأى بعضهم أن يدخلوا ، ورأى آخرون ألا يدخلوا ، وقال : لقد أسلمنا من أجل ألا ندخلها فكيف ندخلها بأرجلنا ، وفى النهاية لم يدخل واحد منهم ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : لو دخلوها لما خرجوا منها إنما الطاعة فى المعروف

لا يؤم الرجل فى سلطانه

ومن روح الصلاة أنه لا يؤم الرجل فى سلطانه ، اللهم إلا إذا أذن ، فأنت إذا كنت فى بيت أخ لك كانت له الإمامة دونك ، إلا إذا أذن لك ، لما روى الترمذى فى سننه من حديث أبى مسعود الأنصارى حيث قال ﷺ : (لَا يَؤُمُّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ (بيته) إِلَّا بِإِذْنِهِ ، ولا يجلس عَلَى تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

وهكذا نجد روح الصلاة فى مراعاة حرمة البيوت ، وقد روى البخارى وغيره أن رجلاً دعا رسول الله ﷺ إلى الركوب على دابته فتأخر ؛ فقال له ﷺ : أنت أحق بصدر دابتك إلا إذا أذنت لى ؛ فقال : قد أذنت لك يا رسول الله

وقد قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَآ ﴾ النور : ٢٧

فلا دخول لبيوت الناس إلا بعد استئذان واستئناس ، ولا يجلس الداخل إلا حيث يجلسه رب البيت ؛ لأنه أعلم بعورة بيته ، وهذا من روح الصلاة ، وقد ضيع كثير من الناس هذه القيمة ، فعربد بعضهم فى بيوت بعض

سمع الله لمن حمده

ومن روح الصلاة فى الحياة أن يشيع حمد الله ﷻ فى كل موطن من مواطنها ، ومنحى من مناحيها ، فإن المصلي يقول بعد قيامه من الركوع : (سمع الله لمن حمده) ومعنى (سمع) : استجاب ، فالله يستجيب لمن حمده ، والحمد هو الثناء على الله ﷻ

والدليل على أنّ روح الصلاة فى تلك الجزئية غير جلية فى الحياة شيوع روح السخط ، والغضب ، فإذا أفاد المسلم من روح الصلاة فى هذا رأيت حمداً لله ﷻ وشكراً ، وما رأيت مثل هذا السخط ، وسباب الدهر ، واللعان ، وسوء الألفاظ ، التى غشيت حياة الناس ، فلا تسمع طيباً ، ولا حسناً ، وقد روى الترمذى فى سننه من حديث على بن أبى طالب قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال :

(سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ملء السماوات ، وملْ الأرض ، وملْ ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد)

فانظر إلى هذا الحد الذى لا يحد من الحمد (ملء السماوات ، وملْ الأرض ، وملْ ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد)

السلام فى التشهد

وليس من المعقول أن يكون فى التشهد الذى هو ركن الصلاة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) ثم يخرج المصلي إلى حرب ودمار ، وتخريب ، وإثارة فتن ، ويختتم المصلي صلاته بالسلام ، يقول : (السلام عليكم ورحمة الله) مرتين ، فهو يخرج بلا شك

من سلام القول إلى سلام القول والعمل

فإذا رأيت إنساناً يصلي ، وختم صلاته بالسلام ، ثم خرج كارهاً عباد الله ، مدعواً إلى الصلح والسلام ، وهو يأبى فاعلم أنه لم يفد من روح الصلاة ، ولم تؤثر الصلاة فيه

روح الصلاة تخرج الإنسان عن أصل جنسه

والله ﷻ يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المعارج: ١٩ – ٢٢

والمصلون بلا شك من الناس ، فكيف استثناهم خالق الخلق ﷻ من أصل جنسهم ، فقال : إنهم لا يجزعون عند الشر ، ولا يمنعون عند الخير

نعم لا يجزعون عند الشر ، صدّق ذلك خبيب بن عدى ﷺ حين سأله كفار مكة قبل أن يصلبوه : عم يشتهى ؟ فقال : أصلي ركعتين ، فتركوه ، فصلى ركعتين خفيفتين ، وجاءهم ، فقال : لولا أن تقولوا : أطال فى صلاته خوفاً من الموت لأطلت ، وقدم إلى الموت غير جزع ،نعم ، إن الذى يصلي لله رب العالمين ، ويقف طاهراً متوجهاً نحو القبلة مكبراً ، قارئاً أم الكتاب ، وما تيسر من القرآن ،

راكعاً ، وساجداً ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، كيف يجزع عند الشر ، وكيف يمنع عند خير ، وهو الذى أمره ربه بالصلاة ؛ فصلى ، وكما أمره بالصلاة أمره بالإنفاق ، وهو يؤمن بالكتاب كله ، وقد قال العلماء فى سر الجمع بين الصلاة والزكاة فى الأعم الأغلب من آيات القرآن الكريم : إن الزكاة لا يؤتيها إلا المصلون

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

ومن حديث القرآن الكريم عن روح الصلاة قول الله ﷻ : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٥

ولن تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر إلا إذا سرت روحها فى المصلي ، الذى عظمها فامتثل ، وأدّاها فى أول وقتها إلا إذا كان ذا عذر ، وخرج منها مسلماً ، ومشى فى الناس على نور منها ، والفحشاء والمنكر ليسا من السلام فى شىء ، إنما هما من الكوارث والقاذورات ، وقد نسب النهى عن الفحشاء والمنكر إلى الصلاة من قبيل المجاز ؛ لأن الصلاة لا تنهى أصلاً ، وذلك من سبب فى النهى عن الفحشاء والمنكر ، فمن نهته – صلاته عن الفحشاء والمنكر فقد صلى

ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له ، أى فلا صلاة كاملة مباركة له ، وهذا من فقه الأساليب ، وفى رواية : مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً ، والعياذ بالله

الصلاة راحة

ومن روح الصلاة أنها راحة للمصلي من تعب الحياة وهموم الدنيا ؛ لقوله ﷺ : أرحنا بها يا بلال

فمن صلى ولم يشعر بتلك الراحة فليراجع شعوره بالصلاة ، ومصدر الراحة فى الصلاة يتمثل فيما يأتى :

١ - أنها تستلزم طهارة ، والطهارة رفع لأدران البدن ، وتجديد لنشاطه

٢ - وأنها صلة بين العبد وربه ، وقد جرت عادة الناس أن الواحد منهم إذا اتصل بكبير من الناس أو عظيم شعر براحة ظنا أنه سوف يقف بجانبه ، ويعينه ، فما بالنا وقد اتصل العبد بالكبير المتعال ذى الجلال ، الذى قدرته قدرة القدر ، وقوته قوة القوى ، يقول للشىء : كن فيكون !

٣ - وأنه يشعر بأن الله ﷻ قد غفر له ذنوبه التى بين الصلاة والصلاة ، فالصلاة إلى الصلاة ، والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر

ومن روح الصلاة النظر إلى المصلحة لا إلى الجهة

ومن روح الصلاة مراعاة النظر إلى المصلحة لا إلى الجهة ، فإن كانت المصلحة جهة اليمين مضى المسلم جهة اليمين ، وإن كانت جهة الشمال مضى جهة الشمال ، دون الإصرار على اليمين ، أعنى يمين الجارحة ، جاء فى سنن الترمذى باب ما جاء فى الانصراف عن يمينه وعن شماله عن قُبَيْصة بن هُلْب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يؤمنا ، فينصرف على جانبيه جميعاً ، على يمينه وعلى شماله

قال الترمذى : وقد صحّ الأمران عن النبى ﷺ ، ويروى عن على بن أبى طالب أنه قال : إن كانت حاجته عن يمينه أخذ عن يمينه ، وإن كانت حاجته عن يساره أخذ عن يساره

وقد روى الواقدى فى المغازى أنه ﷺ نام فى الخندق على جنبه الأيسر ، لما كان الموضع أقرب إليه

نعم ضيع الناس وقتاً طويلاً فى يمين الجارحة ، وهى سنة بلا شك للقادر عليها ، لكن يمين الإسلام لم تجد من يتحدث عنها مليا ، وينشرها فى الناس انتشاراً قريبا من يمين الجارحة ، فأصحاب اليمين الذين هم فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة هم الذين اقتحموا العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، قال الله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ البلد: ١٧ - ١٨

أى ثم كان اقتحام العقبة من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة ، فأولئك أصحاب الميمنة ، فإن كنت تريد أن تكون من أصحاب اليمين فاقتحم عقبة النفس المجبولة على الشح ، وفك الرقاب ، فإن لم تجد فى السوق رقاباً ففى السجون رقاب مدينة بدراهم ، ففك حبسها وأسرها ، وأدرك نظيرها قبل أن يلقى مصيرها ، وأطعم الطعام ، وتواص بالصبر ، وتواص بالمرحمة ، وكل بيمينك ، واشرب بها ، والبس متى استطعت ، وراع المصلحة ، واتجه اتجاهها فلا طيرة فى الإسلام بشمال ، ولا إضاعة لوقت حرصاً على جهة

روح الزكـــاة

والزكاة ركن من أركان الإسلام ، بها يتطهر المال وينمو ، ويبارك الله فيه ، أفلح مَنْ عمل لها : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المؤمنون: ٤

فى سياق الحديث القرآنى عن فلاح المؤمنين : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ المؤمنون: ١ – ٤

وقد روى البخارى أن أعرابياً قال للنبى ﷺ : حدثنى عن الهجرة ، فسأله النبى ﷺ : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ؛ قال : هل تؤدى صدقتها ؟ قال : نعم ، قال : فارجع وارع إبلك ، وأد صدقتها ، واعلم أن الله لن يترك (ينقصك) أجرك ، ولو كنت من وراء البحار

والزكاة مال مدفوع لمن يستحقه من الأصناف الثمانية : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ التوبة: ٦٠

وقد قال الله – تعالى – : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ التوبة: ١٠٣

وقال عز من قائل : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر: ٩

قد أفلح من آتاها وحبسها ، ورعاها ، واتقى الله فيها ، وأخرجها مؤمناً أنه يؤدى بها ركنا من أركان دينه

وشرط الزكاة بخلاف بلوغ النصاب فى المال النية ، وقد قال ﷺ فيما روى البخارى وغيره : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى)

ومعنى النية : انشغال القلب بها ، والتفكر فيها ، وحسابها ، وإخراجها بنية أداء ركن من أركان الإسلام ، ولك أن تتصور امرءاً مشغولاً بالعطاء ، كيف تكون سريرته ، وعلى أى شىء تنطوى ضلوعه ؟ وكيف يعيش فى الناس مهموماً بهم ، مشغولاً بالفقراء والمساكين منهم ، إنه فى وادى الإحسان يمشى ، وفى تزكية النفس يخوض ، والمال عزيز كما قال ربنا – تعالى – ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ البقرة: ١٧٧

وقال سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ الإنسان: ٨

وهى رأس الإنفاق بلا شك ؛ لأنها فريضة مكتوبة ، وركن من أركان الدين ، وفاعلها من المحسنين ، قال تعالى فى أصحاب الجنة : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ الذاريات: ١٦ – ١٩

وقد قال العلماء : إنما سميت الزكاة صدقة ؛ لأنها تصدق إيمان فاعلها ، فهى دليل صدق على إيمانه ،

فانظر كيف تكون روحها فيه ، وقد خرجت من يده دليل صدق على إيمانه ، فما عسى أن يكون المؤمن إلا نوراً يمشى فى الناس ، هيناً ليناً ، متواضعاً ، يعطى وكأنه يأخذ الذى يعطيه ، لا يراها غرماً ، وإنما يراها غنيمة ، وأهم ثمرات روحها : البعد

عن المنِّ والأذى ، قال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٤

روح الصيـــام

من رحمة الله – تعالى – بنا معشر المسلمين أن كتب علينا الصيام أياماً معدودات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ البقرة: ١٨٣ – ١٨٤

وفى ضوء الكتاب والسنة يتبين لنا أن روح الصيام تكمن فيما يأتى :

١ – التقـوى ، لقـول الله – تعـالى – : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

والتقوى غاية المؤمن، وسر أسرار جهاده بنفسه وماله فى سبيل الله ، وهى خير زاده ، لقوله – تعالى – : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ البقرة: ١٩٧

ومعناها : اتخاذ العبد وقاية بينه وبين عقاب الله ﷻ الأمر الذى يفيد حتماً أن مقتضى التقوى العمل على رضا الله ، واجتناب سخطه ، وغضبه ، فإذا تحققت التقوى من خلال الصوم ، وجدت ثمراتها يانعة فى المتقين ، ومن أهم تلك الثمرات :

٢ – الإنفاق فى السراء والضراء

٣ – وكظم الغيظ

٤ – والعفو عن الناس ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٤

٥ – و الإيمان بالغيب

٦ – وإقامة الصلاة

٧ – واليقين باليوم الآخر

قال ﷻ : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ البقرة: ١ – ٥

٨ – والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر

وغير ذلك من الفضائل والنعوت التى يتحلى بها المتقون

وتكمن التقوى فى أجل صورها فى الصيام حيث تتجسد فى مراقبة الله ﷻ ، وتنكشف عن معنى الإحسان كما جاء فى حديث عمر ﷺ الذى رواه البخارى : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)

ذلك أن الصائم يكون فى مكان لا يراه فيه أحدٌ من الناس ، وقد يكون الصيف بحرارته زمان صومه ، وهو يستعمل الماء فى وضوئه ، ويتمضمض دون مبالغة ، ويحرص أشد الحرص على ألا تصل من هذا الماء قطرةٌ إلى جوفه ، ليتم صومه ، فما الذى يدفعه إلى هذا الحرص الشديد سوى أنه يؤمن أن الله يرى ما فى جوفه خاصة ، ويراه عامة

فهلّا فعل ذلك لوجه الله – تعالى – فى سائر أعماله ، فرأى نفسه وهو مقبل على عمل الحرام غير قادر على إتمامه ؛ لأن الله ﷻ يراه كما يراه فى غرفته وهو وحده ،

والطعام والشراب أمامه ، لكنه لا يقربها فى نهار صومه ؛ لأن الله يراه ، فيصدق قول رب العالمين الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١

٩ - ومن روح الصيام التى يجب أن تسرى فى دماء الصائمين ترك الزور والعمل به ، لما رواه البخارى والترمذى وغيرهما من حديث أبى هريرة ، حيث قال ﷺ : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة بأن يدع طعامه وشرابه)

وهذا الحديث من أقوى الأحاديث النبوية الشريفة التى تبين روح الصوم ، كما قال الله – تعالى – فى آية الحج : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الحج: ٣٧

فمن ضحّى فإنما يضحى لنفسه ، بأن يثبت لها وللدنيا من حولها أنه يتقى الله ﷻ ، ومن صام فإنما يصوم كذلك ليربى نفسه على أخلاق الصائمين ، فكيف يصوم عن الطعام والشراب ، ولا يصوم عن المنكرات ، ومنها قول الزور ، والعمل به ،

وترك قول الزور، والعمل به ليس منهيا عنه فى نهار الصوم فقط ، أو فى زمانه ، وإنما هو منهى عنه أبداً ، وهو حال الصيام من باب أولى ، فلا يزعمن أحد أن له رخصة فى قول الزور، والعمل به بعد رمضان ، إنما شأن المسلم أنه لا يقول الزور ، ولا البهتان ، ولا يغتاب ، ولا يمشى بالنميمة مدة حياته ، وذلك يبدو منه عمره ، وهو فى زمان صيامه أوضح بدوا ، وأجلى مظهراً ؛ لأنه فى أطهر أيامه ، وأسعد زمانه ، حيث إن صومه لله ، والله – تعالى – يجزى به كما جاء فى الحديث القدسي

١٠ - ومن روح الصيام تدريب النفس على قول : (لا) كلما جشأت وجاشت ، ورغبت فى الرجوع عن الحق ، وهمت أن تكون على هواها : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النازعات: ٤٠ – ٤١

نعم ، إن الصيام يدرب المسلم على أن يقول لشهوته : لا ؛ لأن مدة صيامه يقول للطعام : لا ، وللشراب : لا ،

ولشهوة فرجه : لا

وللغيبة : لا

وللنميمة : لا

ولقول الزور : لا

وللعمل به : لا

وللسباب والشتائم : لا

ولكل معصية وإثم : لا

فهلّا قال إذا همت نفسه بفعل محرم : لا

وهلّا قال للكسل والجبن والتخلف والتواكل : لا !

١١ - ومن روح الصوم كذلك تذكير المرء نفسه بأنه لله ﷻ عابد ، ألا ترى إلى قول النبى ﷺ : (فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم) عليه أن يذكر نفسه بروح عبادته لله

وهنا تكمن الروح ، حيث إن النبى ﷺ لم يقل : فإن عرض عليه طعام أو شراب ، أو رأى زوجته ، فاشتهاها فليقل : إنى امرؤ صائم ، وهذا معنى الصيام الجسدى : الامتناع عن شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس

وإنما قال : فليقل إنى امرؤ صائم مع روح الصيام ، التى تتجسد فى درء السيئة بالحسنة ، كما يدرأ شهوتى البطن والفرج بالصبر ، وعليه كذلك أن يذكر نفسه بحقيقة عبوديته لله ﷻ فى مواقف حياته ، ألا ترى إلى قول ابن آدم لأخيه : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ المائدة: ٢٨

ومن كان لله عابداً بحق خافه ﷻ ، أى خاف مقامه بين يديه يوم الحساب ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

فيا ليت كل من تسول له نفسه ويوسوس إليه شيطانه أن يفعل ما حرّم الله يقول : إنى أخاف الله رب العالمين

١٢ - والصبر من روح الصيام ، قال النبى ﷺ للباهلى الذى صام عاماً كاملاً ، غاب فيه عن النبى ﷺ فلم يعرفه لتغير هيئته بسبب تواتر الصوم ، قال له : ولم عذبت نفسك ، صم شهر الصبر

والصائم لا يصبر على الطعام والشراب فحسب ، وإنما يصبر على أذى الجاهلين ، وفتنة الفتانين ، وكيد الشياطين ، من الجن والإنس

والصبر كما قال الشاعر :

الصبر كالصبر مرّ فى مذاقته
لكنْ عواقبه أحلى من العسل

صبر النبيون حتى أتاهم نصر الله ، وصبر طلاب العلم حتى صاروا أعلاماً تشد إليهم الرحال ، وصبر المتقون حتى صاروا أولياء لله ، وصبر المسلمون الأوائل حتى نالوا من العلم ما شهد لهم به العدو قبل الصديق ، وصبر الغرب حتى صعدوا إلى الآفاق ، وهيمنوا على الأرض ، بينما تخلف المسلمون ، وما كان ينبغى لهم أن

يتخلفوا ؛ فهم المأمورون بالصبر ، والعمل ، والتوكل على الله ﷻ ونحن فى حاجة إلى الصبر الذى لم نتوقف عنده طويلاً ، وهو الصبر على الأعمال ، وذلك لأن كثيراً من الناس فى زماننا لا يعرفون إلا الصبر على الابتلاء ، أى صبر المجروحين ، أما صبر العاملين المتقين الذى عرفه سلفنا الصالح ، وذلك من قديم وحديث فنحن لم نتوقف عنده طويلاً ، صبر البخارى فأخرج للدنيا جامعه الصحيح الذى تلقته الأمة أى علماؤها بالقبول ، ونعتوه بأصح كتاب بعد كتاب الله - تعالى - وصبر سيبويه فأنتج الكتاب الذى وصف بأنه كالدوحة الباسقة ، وجميع المؤلفات بالنسبة إليه كالغصون والفروع ، وصبر الطبرى فأعد تاريخه الطويل ، وغيرهم فى شتى المجالات ؛ فأقيمت للحضارة صروح ، وكانت لنا أمجاد ، ونحن اليوم أشد حاجة إلى هذا الصبر الذى نرجو أن ينتشلنا من وحدتنا الهابطة إلى القمة العالية التى نستحقها ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ آل عمران: ١١٠

نحن فى حاجة إلى الصبر على تربية الأهل ، والأولاد على مكارم الأخلاق ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ طه: ١٣٢

ونحن فى حاجة إلى الصبر على كل عمل نعمله حتى نتقنه ، كما قال ﷺ :

(إن الله يحب إذا عمل أحدكم عمل أن يتقنه) ولا إتقان مع العجلة

استخرج من ذاكرتك صورة الترزى القديم الذى كان يفصل عباءة الرجل على يديه لا على الماكينة ، كم كان يأخذ فى ذلك من وقت ، ويبذل من جهد ، وفى النهاية تجد نفسك أمام تحفة فنية لا أمام عباءة ، وكذلك صورة الفلاح القديم الذى

كان يربى ماشيته ، ويرعى زرعه على مهل وصبر ، ويحصل من وراء ذلك على الخير ، وكذلك صورة الفلاحة التى صبرت على حلب بهيمتها فدرت ، وعلى خبيزها فأفلحت، وعلى طهيها فوق كانون الدار فأطعمت طيبا

كانونها ما زلت أحفظ رسمه

إن تخب نار لـه مدت بعيدان

من فوقـه قِدرُ أختى تتابعها

ما أجمل الطهى فى بطء لنيران

وكنا فى زمان الطلب نذهب إلى دار الكتب المصرية أيام كانت بباب الخلق ، قبل أن تنقل إلى كورنيش النيل ، وبداخلها الميكرو فيلم ، وذلك قبل أن يفتح العمال أبوابها ، ونعتكف على النفيس من المطبوعات والمخطوطات ، وندون بأيدينا حتى ينتهى اليوم ، ويستأذننا الموظفون فى الانصراف دون أن نشعر بأن ساعة واحدة مرت ، واليوم صار النت بديلاً عن دار الكتب لدى صغار الباحثين الذين يطبعون من على شاشة اللاب توب ألوف الصفحات فى ثوان معدودة ، لا صبر عندهم لهذا الاعتكاف الذى عرفناه ، وصبرنا عليه ، وهنا كلمة مهمة لابد أن أقولها ، وهى أن هذا ليس ذما فى تقنية علمية سهلت الأمر ويسرته ، وإنما الذم على ما بين يديه من معلومات ، كى يدرسها ، ويفهمها ، ويقارن بينها ، ويقف على فكر أصحابها ، ويضيف إليه

روح ليلة القدر

وليلة القدر من الليالى المباركة ، وهى خير من ألف شهر ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ القدر: ١ – ٥

وفيها حديث البخارى : (من قام ليلة القدر إيمانا واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)

وروى البخارى كذلك أن أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – سألت النبى ﷺ أن يعلمها دعاء تقوله إن صادفت تلك الليلة الكريمة ، فقال لها : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى

وهذه الليلة المباركة روحها يجب أن تدب فينا بمعنى أننا إذا لم نوافق ليلة القدر حساباً محدداً ، حيث إنها أخفيت فى العشر الأواخر من رمضان لما تلاحى رجلان ، أى : تشاجرا فيجب أن تكون ليالينا وأيامنا ذات قدْر ، وإن لم تصل إلى مستوى ليلة القدر ، ولن تكون ليالينا ذات قدر إلا إذا كانت سلاماً ، سلاماً مع الله ﷻ وسلاماً مع النفس ، وسلاماً مع الناس

فمن وصاياه ﷺ أن المرء إذا أمسى لا ينتظر الصباح ، وإذا أصبح لا ينتظر المساء ، لا على معنى اليأس من الدنيا ، ولفظها بالكلية ، أو تطليقها على حد تعبير بعض الصوفية ، وإنما على معنى محاسبة النفس ، وإيتاء كل ذى حق حقه ، كالمسافر الذى لابد أن يعد متاعه ، ويودع أهله ، ويبين ما لهم وما عليهم ، ويوصيهم بتقوى الله ﷻ أو كالمسافر العائد إلى بلده الذى لابد أن يحاسب فندقه ، ويجمع متاعه وأوراقه ، إن الليلة ذات القدر هى التى يضع فيها المسلم جنبه على فراشه ، وما لأحد عنده من

مظلمة ، أوهى الليلة التى كلما تعار فيها ذكر الله ، وقام إلى الصلاة : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الذاريات: ١٧ - ١٨

أو هى الليلة التى كان الأرق فيها محمدة ، فقام وقرأ وكتب ، واستذكر ، وذكر الله ﷻ

أو هى الليلة التى سافر فيها فطويت له الأرض ،

أو عمل فيها عملاً يحمده إذا طلع النهار ، كما قيل من قديم : (عند الصباح يحمد القوم السرى)

ولن تكون أيامنا ذات قدر إلا إذا كانت أيام مجد وعمل ، وجد ونشاط ، وسمو فى العالمين ، ونهضة وارتقاء بمستوى حياة الفرد والأمة ،

انظر إلى هذا اليوم الذى نصر الله فيه المسلمين يوم بدر : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٣

ألم يكن يوماً ذا قدر

وانظر إلى غيره من الأيام ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى آية إبراهيم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٥

فأيام الله – تعالى – كما قال المفسرون – هى أيام نصر الله – تعالى – عباده المؤمنين به ، المتوكلون عليه

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٤٩

وانظر إلى ذلك اليوم الذى تحقق فيه أمران مهمان لخير إنسان ، سيدنا رسول الله ﷺ فتح خيبر ، وعودة جعفر بن أبى طالب ﷺ حيث قال ﷺ : لا أدرى بأى اليومين أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر !

فمتى نقول بقول نبينا ﷺ : لا ندرى بأى الأمرين نسر : بتحرير القدس أم بزوال اللقب البغيض عنا

(الدول النامية) على مستوى الأمة ، التى لن تقول ذلك إلا إذا تحررت عقولها من ذل الموافقة على التخلف ، والتصفيق للناعق الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، وسفارات ، وشجب ، واستنكار

منذ وعيت وأدركت الحياة ، وأنا أسمع هذه العبارة كلما اجتمع رئيسان أو قمة كاملة : (اجتمع فلان وفلان لبحث آخر التطورات على الساحة العربية أو لبحث القضية الفلسطينية) ولطالما قلت فى نفسى : أما أسفرت هذه البحوث الدائمة المتكررة عن نتائج ذات قدر ، وطبعا لا تسفر عن نتائج ذات قدر ؛ لأنها لم تكن بحوثاً جادة ، وإنما كانت مجرد كلمات يعقبها عشاء فاخر ، وسهرات فنية ، وهدايا متبادلة ، وعلاقات خاصة ، والدليل على احتقار عقولنا أن أحداً لم يقل لنا شيئاً عن نتائج هذه البحوث العالية من أصحاب الجلالة والفخامة ، وقد بدا أكثر من مرة لجميع الناس سوء ما بينهم ، والتنابز بالألقاب فكيف يبحثون ، وهم قضاة ، ولا يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان !

إنّ القضية الفلسطينية التى أغرقت بحوثاً من القادة والحكام ، والسياسيين والمحللين ، والفنانين والأدباء والشعراء ، ليست من الأحاجى ، ولا من الألغاز ، إنما نحن الذين جعلناها كذلك ، طال عليها الأمد ، ونحن نلعن الصهاينة شكلاً وفنا وأدبا ونعانقهم حبا وإعجاباً معنى وحقيقة ، واليوم الذى كان ذا قدر فى حياتنا معهم هو يوم العبور المجيد ، الذى هزمناهم فيه ، واليوم الذى هزمهم فيه حزب الله بلبنان برغم أنه متواضع التقنية بالنسبة لما تزودهم به أمريكا والدول الصديقة ، ما أحد يرضى بأن يكون بيننا وبينهم تطبيع ، أو أن نوصل لهم غازاً طبيعياً يمدهم

بالطاقة ، ولو بأعلى الأسعار فضلاً عن تدنيها ، لكن ذلك كله كان ، فلم كان ؟ وهل رأت شعوبنا ذلك ، أم أن حكامنا هو الذين يفعلون ما يريدون

إن الطريق إلى اليوم ذى القدر واضح المعالم ، لكنا أدمنا السير فى الأزقة والبنيات ، كالطريق إلى أسعد حياة مع الله ﷻ لكنا أدمنا السير على الأشواك وكأننا – والعياذ بالله – أبينا إلا أن نفسد عقيدتنا ، وأن نفقأ أعيننا عمداً ، كما قال الفرزدق حين طلق زوجته نوار

فكنت كفاقىء عينيه عمداً
فأصبح لا يضىء له النهار

وعلى مستوى الفرد هناك الألوف المؤلفة من الناس تمر أيامها ولياليها مروراً كما يقال جغرافيا لا تاريخيا ، بمعنى أنه كر الليل والنهار على وتيرة واحدة ، كالتضاريس التى لا تتغير مع مرور الزمن الطويل فيما يبدو للعين الناظرة ، وإن تغيرت وفق سنن الجيولوجيا ، أو حسبما تأتى الكوارث ، فالأيام متشابهة ، وكذا الليالى ، إذا سألت الواحد منهم عن حاله قال لك : لا جديد ، أو قال دون أن يسأله أحد : ما نبيت فيه نصبح فيه ، نعم هناك جديد ، لكن لا بالنسبة إليه ، إنما هو بالنسبة إلى مَنْ يبحث عنه

فما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

هناك عقل مثل عقله ، لكنه تحرك ، وأمر الجوارح ، وصبر ، حتى قال : وجدتها ، ذلك أرشميدس ، وفيثاغورث ، وإسحق نيوتن

ومن قبل هؤلاء الخليل بن أحمد الذى اكتشف علمى العروض والقوافى ، كان يمشى فى السوق ، وربط بين صوت المطرقة المنبعث من السوق ، وبين تقطيع الشعر فعاد ، وصنع الدوائر العربية ، وأنشأ البحور ، وكان له فضل السبق

أما عقل الذى تمر عليه الليالى والأيام على حالها دون تغيير فعقل راكد ، أو عقل أمة من الأمم عبر عنه أحد العلماء المحدثين بقوله : عقل كاسح ، ولكن فى جسد كسيح ، وليس هناك من معوق للجسد ، سوى الإعاقة النفسية من مناخ سىء يدعو إلى الكسل والتواكل ، والرضا بالدون ، وما يرضى به مسلم فقهه الله فى الدين ، فهو يأكل كما أكل الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى (أزكى طعاماً) وقد علمنا رسول الله ﷺ الارتقاء بالنفس حتى فى سؤال الله ﷻ الجنة أن نسأله الفردوس فإنها أعلاها ، وقال كما روى البخارى وغيره : (ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)

- والإنسان يأكل من ميراثه ، وهو حلال
- ويأكل مما طابت له منه نفس أخيه ، وهو حلال
- ويأكل مما أهدى إليه ، وهو حلال
- ويأكل مما دعى إليه ، وإجابة الدعوة من السنن النبوية الحياتية ، وهو حلال
- بل يأكل مما حصل عليه من قبيل السؤال إذا كان ذا فقر مدقع ، أو غرم مفظع ، وهو حلال
- بل يأكل دون إفساد من بيت صديقه ، أو مما ملك مفاتحه ، وهو حلال
- بل يأكل دون إفساد إذا اشتد جوعه من خيرات الناس ، وهو حلال

لكن أفضل ما يأكل أن يأكل من عمل يده ، وهو بلا شك حين يأكل من عمل يده ، إنما يأكل ، ويؤكل غيره من أثر عمله ، ويرى الجديد ، بل إنه يصنع الجديد بعمله

وحين أراد الصحابة – رضوان الله عليهم – أنْ يجمعوا من تمر الأراك قال لهم ﷺ : عليكم بالأسود منه ؛ فإنه أطيب طعما ، فسألوه قائلين : لا يعرف هذا إلا من رعى الغنم ؛ فهل رعيتها يا رسول الله ، قال : نعم ، وما بعث الله ﷻ نبياً إلا رعاها ، فمن الذى عود الناس على أن يقولوا هذه العبارة : (أى حاجة) ، (أى كلام) ، (أى شىء) ، (لا فرق) ، (كله محصل بعضه) هذه العبارات التى لا تدل على فرق وتمييز بين الأشياء ، والدين كله دعوة إلى الأفضل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء: ٩

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ النساء: ٦٦ - ٦٨

وصيغة التفضيل فى عموم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تدل على هذا المعنى

﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾ البقرة: ٢٨٢ ،

﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ النساء: ١٢٨

و ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ الحديد: ١٠

و ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ الأحزاب: ٥٣

وقول النبى ﷺ : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله – تعالى – من المؤمن الضعيف)

روى الترمذى من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : كان النبى ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطَبَات ، فإن لم تكن رطبات فتميرات ، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء

وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، وروى أن رسول الله ﷺ كان يفطر فى الشتاء على تمرات ، وفى الصيف على الماء

روح العبـــادة

والحج ركن الإسلام الأخير ؛ لأنه لمن استطاع إليه سبيلا، قال الله ﷻ : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ آل عمران: ٩٧

وهو مرة واحدة فى لعمر ، قال ﷺ : أيها الناس ، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ؛ فقال رجل ، قيل هو الأقرع بن حابس : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فسكت ﷺ فأعاد الرجل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فلما قالها ثلاثاً قال ﷺ : لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم

وهو جهاد بالمال والنفس ، وأعماله المعروفة فى الحج

١ – إحرام من الميقات المكانى ، وفى زمن الحج من أول شوال إلى التاسع من ذى الحجة ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ ﴾ البقرة: ١٩٧

٢ – وطواف ، وهو سنة كطواف القدوم ، والوداع ، وركن وهو طواف الإفاضة

٣ – وسعى بين الصفا والمروة

٤- ووقوف بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة إلى فجر العاشر منه

٥- والمبيت بمزدلفة

٦- والذهاب إلى منى يوم العاشر لرمى العقبة الكبرى ، والحلق أو التقصير ، وذبح القارن ، والمتمتع وطواف الإفاضة (الركن)

٧- والمبيت بمنى لليلتين أو ثلاث اختياراً دون تفضيل لذكر الله ﷻ ورمى الجمرات ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٣

أما روح الحج فتتمثل فيما يأتى :

١- أن يحرص المسلم على المال الحلال ؛ لأن الحاج إذا حج من مال حلال ، وقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ، أجيب بلبيك ، وسعيك ، والخير بين يديك ، حجك مبرور ، وسعيك مشكور ، وذنبك مغفور

وإذا كان ماله من حرام وقال : لبيك اللهم لبيك أجيب بلا لبيك ولا سعديك ، وكان بعض العلماء يتذكر ذلك قبيل الحج فيغمى عليه خشية أن يقال له : لا لبيك ولا سعديك

٢- وروح التلبية فى الحج يجب أن تمتد فى حياة الحاج والمعتمر ، فهى من المصادر المثناة ، ومعناها تلبية لك بعد تلبية ، أى إجابة لك بعد إجابة

وقد قال الله – تعالى – : ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ مريم: ٣١

فمدة حياة الإنسان عليه أن يلبى نداء رب العالمين ، إذا نادى المؤذن للصلاة ، وإذا دخل رمضان ، وإذا حال الحول على المال الذى بلغ نصاب الزكاة ، وإذا سمع نداء ذى الحاجة الملهوف ، وإذا وجد أذى فى الطريق ، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة كما جاء فى الحديث الشريف ، وإذا استشاره مسلم ، أو استنصحه ، فقد قال ﷺ : الدين النصيحة ، وأن يعلم جاهلاً ، وأن يطعم جائعاً ، وأن يتعلم القرآن ويعلمه ؛ فقد قال ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)

أى أن يفعل الخير أنى وجد إليه سبيلاً ، وأن ينأى عن الشر والسوء والأذى حتماً ، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً ، أو ليصمت إنه فى ذلك كله يلبى ،

ومن التلبية أن يجيب نداء مَنْ يناديه ، وقد وجدت فى مواقف كثيرة من مواقف الناس مع سيد الناس رسول الله ﷺ أنه ما من نداء كان من رسول الله ﷺ إلا كان فيه مَنْ يقول : أنا ، إلا فى مواضع معدودة ذات ظروف خاصة ، وعندها كان ﷺ يعين واحداً منهم ، فيهب ملبياً ، قائلاً لنا وللدنيا جميعاً : لما لم يكن من طاعته ﷺ بد فعلت كذا وكذا ، أى ما أمره به ﷺ

- قال ﷺ : مَنْ رجل ينظر لى سعد بن الربيع ، أفى الأحياء هو أم فى الأموات ، فقال رجل : أنا يا رسول الله
- وقال ﷺ : من رجل يذبح لنا هذه الشاة ؟ فقال رجل : أنا ، فسأله عن اسمه ، فلما قال : مرة ، قال له اجلس ، فجلس ، وأعاد النداء ؛ فقام رجل ، وقال : أنا ، فلما سأله عن اسمه ، وقال : حنظلة ، قال : اجلس ؛ فجلس ، وأعاد النداء ، فقام مَنْ قال : أنا ، فسأله عن اسمه فقال : يعيش قال : اذبح لنا ، وكان ﷺ يعجبه الاسم الحسن
- وحين قال ﷺ مَنْ رجل ينظر لى القوم ، وأضمن له الرجوع ، أى العودة سالماً ،

وله الجنة ، فسكت الناس من شدة البرد والجوع والخوف ، فلما سمّى ﷺ حذيفة بن اليمان قام حذيفة ، وهو صاحب الحديث قائلاً : لما لم يكن من طاعته ﷺ بد قمت ، وذهبت ، ودخلت فى الناس ..... إلى آخر الحديث ، وذلك يوم الأحزاب

وكما روى البخارى فى صحيحة من حديث أبى هريرة ﷺ حين صحب النبى ﷺ ليطعمه ، فلما لم يكن هنالك إلا كوب من اللبن ، وقال له ﷺ : ادع لى أصحاب الصفة ، قال أبو هريرة : قلت فى نفسى ، إنه أى الكوب لا يكفى أبا هريرة ، ولكن لما لم تكن من طاعته ﷺ بد ذهبت ، ودعوتهم ، فسلموا ، وأخذوا أماكنهم ، وناولنى ﷺ اللبن ، وقال : اسقهم فشربوا جميعاً ، فقال ﷺ : لم يبق إلا أنا وأنت يا أبا هر ! قلت : نعم ، قال : اشرب ، فشربت ، ثم قال : اشرب ؛ فشربت ، ثم قال : اشرب فشربت ، ثم قال : اشرب ؛ فقلت : والذى بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً ، فشرب ﷺ الفضلة

والشاهد أن هناك فرقاً بين هذه المواقف التى ينادى فيها المنادى ، ويقول : مَنْ رجل يفعل كذا ؛ فيجد من يقول : أنا ، وبين مواقف ينادى فيها المنادى : مَنْ يفعل كذا فلا يجد أحداً ، يقول : أنا ، ولو عين واحداً أو سماه اعتذر ذلك المعين ، وتعلل ، فمن رجل يحمى البلاد من الضياع ؟ ومن رجل يتصدق من ماله فيبنى مستشفى بقرية بائسة ؟ ومن رجل يتولى ولاية لوجه الله – تعالى – ؛ فيؤدى أمانتها ؟ ومَنْ رجل يتولى مسئولية الإعلام ، فيجعله منارة بحق ، وتنويراً بجد ؟ ومن رجل يدفع الأذى من طريق المسلمين ؟

وما أكثر النداءات التى يعبر عنها لسان المقال ، ولسان الحال وهو أكثر وأفصح ، وما من مجيب

٣- ومن روح الحج الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، وما أكثر ميادين سبل الله ﷻ التى تنادى المؤمنين الملبين بالنفس ، والمال لأداء شعيرة الحج خصوصاً الذين يكررون الحج والعمرة ، وفى بلدانهم يتامى وأرامل ومساكين ، وبؤساء هم فى حاجة إلى تلك الأموال التى تنفق فى نافلة ، والإنفاق على هؤلاء من الركن بمكان ، والركن مقدم على النافلة بلا خلاف

٤- ومن روح الحج الالتزام والنظام ، فأنت ترى زمان الحج معروفاً معيناً ، ومكانه ، وعدد بعض أعماله كالطواف والسعى ، وعدد الحصاة التى ترمى بها الجمرات ، وتعيين مواقيت الإحرام للقادرين من شتى البلاد

وفقد روح الالتزام والنظام معناه فقد ماهية الحياة ، وأسمى ما فيها ، فحياة بلا التزام ، ولا نظام عدم ، أو شبه عدم ، وما ضيع كثيراً من الناس مثل الفوضى التى صارت لهم سنة ، وعادة سيئة

٥- ومن روح الحج شيوع الوحدة والتوحد ، حيث إنك تجد جميع الحجيج من شتى البلاد على هيئة واحدة ، وعلى منوال واحد ، جميعهم محرم ، وجميعهم يعمل العمل الواحد ، وجميعهم له هدف واحد ، أن يتقبل الله – تعالى – منه حجته ، وأن يرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه

أما فى حياة الناس بعد الحج من مقاصد واحدة ، وأهداف مشتركة ، أليس روح الحج ما يدب فى المسلمين حتى ينهضوا لتحقيق رسالتهم فى الحياة ، وإن اختلفت ميادين أعمالهم ، وتخصصاتهم ،

٦- ومن روح الحج : شيوع معنى الإنسانية فى الناس

فمن يتأمل جميع الآيات الواردة فى الحج يجد أنها جميعاً جاءت بلفظ الناس ، قال الله ﷻ :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ الحج: ٢٧

وقال ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ آل عمران: ٩٧

وقال تبارك اسمه: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ البقرة: ١٩٩

وقال جل فى علاه: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٠

وقد راجعت مصادر اللغة فوجدت أن التعبير بالناس يقتضى معناها، وهو ضد الوحشية والتوحش، أى أنه من الأنس والتودد، وحسن المعاشرة

ورأيت أن الحاج فى حاجة إلى هذا المعنى؛ لأنه غريب عن أوطانه، فى حاجة إلى مَنْ يذهب عنه الوحشة

حنّ الغريب إلى أوطانه طربا
إن الغريب إلى الأوطان حنّان

وقد ثبت عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن أفضل ما يقوم به الحاج خدمة إخوانه، والإنفاق عليهم،

ولا شك أن الناس فى حاجة إلى ذلك الأنس، وتلك المودة فى كل مكان، وزمان، وليس من العقل والحكمة أن يكون ذلك وقفاً على زمان الحج ومكانه، فإدخال السرور على قلوب الناس من أحب الأعمال إلى الله، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ومن وصايا النبى ﷺ: عامل الناس بمثل ما تحب أن

يعاملوك، ولا شك أن كل إنسان يحب أن يعامله الناس بإنسانية، لا بتوحش، وبرفق لا بعنف، ولين لا بغلظة، وبرحمة لا بعذاب

فإذا كان يحب ذلك لنفسه فليحب ذلك لغيره، ففى الصحيح: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

٧- ومن روح الحج الكف عن الرفث والفسوق والجدال

قال تعالى: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ البقرة: ١٩٧

والرفث هنا بمعنى الفحش فى القول، وإن كان معناه الجماع فهو حرام مؤقت على المحرم، وعلى الصائم فى نهار الصيام مباح فيما عدا ذلك وغيره كالمعتكف، ومن كانت امرأته حائضاً، قال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ البقرة: ١٨٧

وذلك فى حياتنا اليوم شائع إلى درجة تدعو إلى الرعب، فهناك قنوات للرفث، والإضحاك من خلال السباب واللعان، والفحش فى القول، والسخرية من خلق الله ﷻ وقنوات فضائية مخصصة للعرى، والجنس، وتبادل الرسائل، والاتصالات الماجنة، وقنوات أخرى مخصصة للجدال السيء المحرم، سنة يهاجمون شيعة، وشيعة يهاجمون سنة، وكل حزب بما لديهم فرحون، وإذا كنا على علم أنّ الرفث والفسوق والجدال فى الحج من المنهيات المحرمات، فذلك من باب أولى، لكن لا يجوز للحاج إذا رجع من حجه أن يرفث، أو أن يفسق أو أن يحاول ذلك الجدال المنهى عنه، كما رأينا فى روح الصيام، حيث نهى الصائم الحريص على كمال صومه

وبركته عن قول الزور ، والعمل به ، وهو منهى مستمر ، بعد انتهاء شهر الصيام ، لكنه جاء مع الصيام من باب أولى ،

٨- ومن روح الحج شيوع روح التيسير والتنوع فى الحياة ، وذلك من حيث إن الحج إما مفرد ، وإما قران ، وإما تمتع ، ومعنى الإفراد : الإحرام بالحج فقط ، ولا دم على من أحرم به

والقران : أن ينوى الحج والعمرة معاً

والتمتع : أن يحرم بالعمرة ، ثم يتحلل بعد أدائها ثم يحرم بالحج مرة أخرى ، وعلى القادر والمتمتع دم ،

وكما جاء فى حديث أنس ﷺ سافرنا مع رسول الله ﷺ ، ومنا من صام ، ومنا من أفطر ؛ فما عاب صائم على مفطر ، وما عاب مفطر على صائم

كذلك فى الحج ، لا يعيب مفرد بالحج فقط مَنْ هو قارن ، ولا مَنْ هو متمتع ، وكذلك القارن لا يعيب واحد من هؤلاء الثلاثة أخاه ، فقد شرع الإفراد والقران والتمتع ، كما رخص الإفطار فى السفر فكيف يعيب مسلم على أخيه فعل شىء مشروع ، أو كيف يعيب عليه الآخذ بالرخصة !

ويذكرنى هذا السياق بأتباع المذاهب الفقهية المختلفة ، كيف تراهم مختلفين فى مسائل كثيرة ، لكن لا يعيب أحدهم على إخوته ، وهذا هو الركن الركين ، والأساس الذى يجب أن يكون عليه المسلمون

٩- ومن روح الحج التيسير ، ومن صور التيسير فى الحج وجود فداء لكثير من أعماله ، وهو الدم ، وأن الوقوف بعرفة لا يشترط فيه وقت طويل ، وأنه يرخص لأولى الأعذار أن ينصرفوا من المزدلفة قبل الفجر ، وأنه يمكن تقديم

بعض الأعمال يوم النحر على بعض ، فما سئل رسول الله ﷺ عن شىء من هذا إلا قال : افعل ولا حرج

ويسر الدين قضية من أهم قضاياه ، وهى معروفة ، قال الله – تعالى – :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ البقرة: ١٨٥

وقال ﷺ : (إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)

ومع وضوح القضية نجد أن هناك من يعسره ، والأمر يسر ، وهناك من يضيق والأمر واسع ، وذلك فى العبادات ، وفى الحياة ، وإننى أرى أن المرء إذا وفقه الله – تعالى – إلى روح العبادة عاش الحياة على نورها ، والعبادة قائمة على التيسير ، لكن هؤلاء لا يطيب لهم العيش إلا كدروا صفوهم ، وصفو الناس فى العبادة

روح تلاوة القرآن الكريم

أنزل الله – تعالى – القرآن الكريم بلسان عربى مبين ، وسماه الذكر ، فقال جل فى علاه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحجر: ٩ ، ولاشك أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته ، ولكل عبادة روحها ، وروح القرآن الكريم ليست كأى روح لعبادة أخرى ؛ لما للكتاب الكريم من منزلة عليا ، ومكانة رفيعة ، والماهر به مع السفرة البررة ، تغشاه حين تلاوته السكينة ، وتحضره الملائكة ، وتغشاه رحمة الله ﷻ

والله – تبارك اسمه – يقول فى آخر آية من سورة المزمل : ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ المزمل: ٢٠ ، وذلك لأن العبرة فى المقام الأول أو الروح كما أحب أن أطلق عليها تكمن فى تدبره ، وتعلمه ، وليست فى مجرد إخراج حروفه من

مخارجها ، فتلك زينة القرآن ، وهذا بعض حقه على أصحابه الذين يتلونه حق تلاوته ؛ لأنهم مؤمنون به ، وقد قال ﷺ كما روى البخارى وغيره : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)

وقد روى أن لبيداً الشاعر لم يكتب من الشعر بعد إسلامه إلا بيتاً واحداً ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب وهو قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى
حتى لبست من الإسلام سربالا

وقد قيل له فى ذلك ؛ فقال : كيف أكتب الشعر ، وقد علمنى الله البقرة وآل عمران ، يقول كاتب هذا العمل : إن الرجل قد استطعم القرآن ، ومن رزق هذه الخاصية عافت نفسه ما دونه مع أن ما دونه ليس حراماً على الإطلاق

ونحن على علاقة بكتاب الله ﷻ طيبة فى ظاهرها ، لكن الباطن ما زال فى حاجة شديدة إلى مراجعة جادة

فنحن نحفظ القرآن ، ونرتله ، ولدينا اهتمام برعاية حفظته بنسبة تختلف من فرد إلى فرد ، ومن دولة إلى دولة ، فهناك الجوائز العالية المرصودة للمعنيين بكتاب الله ﷻ حفظاً وتلاوة ، ومنها جائزة دبى التى هى إحدى ثمرات سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ، حفظه الله ، وجائزة الخرافى ، وأوقاف مصر ، وغير ذلك

ولا شك أن مثل هذه الجوائز تشجع الناس على حفظ كتاب الله – تعالى – ومراجعته ، والتمكن من أدائه ، ولدينا إذاعات متخصصة للقرآن الكريم ، ولدينا الأصوات العذبة الموهوبة ، مشهورة ، ومغمورة ، فحجة القرآن ظاهرة ، والعناية به متوفرة ، ولدينا مطابع عملاقة للمصحف الشريف فى الأزهر المعمور ، والمملكة العربية السعودية ، وما من بيت إلا فيه نسخ من طباعته ، ومكتبات صوتية ، وهناك

من المسلمين من لا يسمع من الإذاعات إلا إذاعة القرآن الكريم ، ضبط عليها راديو سيارته ، وهناك من لا يشاهد إلا قنواته الفضائية ، ولله الحمد ، وهناك محال تسمع منها أصوات القراء للكتاب الكريم ، بل إننا نسمعه عندما تدار سيارة ، أو نصعد فى عمارة عبر مصاعدها الحضارية القيمة ، نسمع قول الله – تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ الزخرف: ١٣

ولكن ما زلنا – كما قلت – فى حاجة إلى روح القرآن الكريم ، والتى أراها تتمثل فى أمرين

الأول : تدبر آياته ، والنسج على منواله ، وقد أثرى القرآن الكريم الحياة اللغوية منذ أنشئت العلوم وألفت الكتب ، ولدينا كليات تحمل اسم القرآن الكريم ، وأقسام علمية عالية المستوى فى شتى جامعات العالم العربى، ولدينا مجلدات قديمة ومؤلفات حديثة فى ضوء كتاب الله ﷻ ، وكتب العلماء فى خصائص الأسلوب القرآنى قديما وحديثاً ، كالإمام عبد القاهر الجرجانى صاحب (دلائل الإعجاز) والسيوطى صاحب

(معترك الأقران فى إعجاز القرآن) والمرحوم العلامة محمد عبد الخالق عضيمة صاحب (دراسات فى أسلوب القرآن الكريم) والرافعى فى (وحى القلم) وكاتب هذه السطور صاحب (الظواهر اللغوية فى الفواصل القرآنية) و(التعصب المذهبى وأثره فى النحو القرآنى)

ولو دبت فينا تلك الروح لرأينا أسلوبا مختلفاً فى الأداء اللغوى اليومى لحياة الناس ، وما وصل التدهور اللغوى بنا إلى هذا الحد ، من ضعف ، والتواء ، وظهور مؤلفات غريبة ، إن اطلعت على واحد منها أعياك أن تخرج منه بجملة واحدة مفيدة ، وسبحان الله ، لقد اطلعت على بعض هذه الكتب فكان هذا الاطلاع سبباً فى تدبرى

قول الله ﷻ : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٥ ، حيث بدا لى لأول مرة أن هناك لسانا عربيا غير مبين ، ويمكن أن أفهم هذا المعنى على ما درسته ودرسه غيرى من الفصاحة وشروطها ، ومن تلك الشروط ألا تكون الألفاظ غريبة ، وأن تكون خالية من التعقيد اللفظى، والمعنوى ، ومن ضعف التأليف ، وغير ذلك مما هو مسطور فى كتب البلاغة المتخصصة لكن ذلك سهل يسير بالنسبة إلى الطامة الكبرى فى هذه المؤلفات الكثيرة ، التى تربو على أحمال البعير ، وتملأ بها أرفف المكتبات العربية ، وأرصفة الشوارع ، فأنت تقرأ كتباً ما أشبهها بالفارسية ، التى تكتب بأبجدية عربية ، لكن معناها مختلف ، وقد شاعت هذه الظاهرة – مع الأسف – فى مؤلفات أساتذة تخصصوا فى الدراسات الإسلامية والعربية ، فأنت تقرأ مثل هذا التركيب : (إن البنيوية اللغوية المنحدرة من الأيدولوجية الذاتية المترامية من جذور كذا فى عمق الدلالية .....) كلها تراكيب من مصادر صناعية ، عجيبة ، فأنت فى حاجة إلى ترجمان ، وما كان أغنانا عنه ؛ ولو أنصفنا فى اتباع منهاج البيان ؛ لأن فينا روح القرآن ، التى كانت فى سلفنا الصالح ، فكانت أساليبهم إشراقاً ووضوحاً وجمالاً ، فاقتبسوا من القرآن ، وتأثروا به ، فكان لسانهم عربياً مبيناً ؛ لأن روح القرآن سرت فيه فأحيته ، وغنى عن البيان أثر القرآن فى حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وغيرهما من شعراء المصطفى المختار ﷺ ومَنْ جاء بعدهم على اختلاف العصور والأجيال

ولا شك أن انحدار الأسلوب العربى له أثره السيء فى الخطاب الدينى الذى تأثر بدوره بتلك النزعة الغريبة ، والخطاب السياسى ، والثقافى بوجه عام ، فلدينا مصطلحات غريبة ، وأساليب عجيبة تصلح أن تكون بحثاً مستقلاً

والثانى : وهو مهم جداً فى عرض حياتنا مواقفها وسلوكياتنا فيها على كتاب الله ﷻ

ومما هو محفوظ عن صحابة رسول الله ﷺ أنهم كانوا وقافين عند كتاب الله ﷻ منهم عمر بن الخطاب ﷺ يقال : وكان عمر ﷺ وقافاً عند كتاب الله ، فقد ثار ﷺ يوم مات رسول الله ﷺ وقال : إنه لم يمت ، وإنما ذهب لميقات ربه كما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ، وسوف يعود ، فلما قرأ الصديق ﷺ قول الله – تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ ﴾ آل عمران: ١٤٤

هدأت ثورة عمر ، وقال : كأنى أسمعها لأول مرة .

فهل هدأت ثورة أحد عرفته إذا قرىء عليه القرآن كما هدأت ثورة عمر .

وانظر إلى هذا الموقف الثانى ، حيث استأذن شاب لعمه أن يحضر مجلس عمر ﷺ وكان فى لسان عمه شيء ، وهو عيينة بن حفص، بعد أن عاهده على أن يضبط لسانه ، فلما دخل على عمر قال : يا عمر ، إنك لا تحكم بالعدل ، ولا تعطى الجزل ، وهمّ عمر ﷺ أن ينال منه ، فقال ذلك الشاب :

يا أمير المؤمنين ، إن الله – تعالى – يقول : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٩٩

فهدأت ثورة الفاروق ، وكان ﷺ وقافاً عند كتاب الله

ومن نوادر ما رواه أهل الأدب أن أخت هارون الرشيد كانت تحب رجلاً اسمه (طل) فنهاها أمير المؤمنين عن ذكر اسمه ، وحذرها تحذيراً شديداً ، فدخل عليها مرة ، وهى تقرأ قول الله – تعالى – ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ البقرة: ٢٦٥ ، فلم تستطع أن تقول :

(فطل) فقالت : (فإن لم يصبها وابل فما نهى عنه أمير المؤمنين ؛ فابتسم ، وقال : ليس إلى هذا الحد ، وهو بلا شك من تعظيم الكتاب العظيم ، ومسألة الوقوف عند كتاب الله ﷻ مسألة مهمة ، لولاها ما كان بين أيدينا هذا التراث العملاق من الفقه الإسلامى على اختلاف مذاهبه ، فهو ثمرة الوقوف عند كتاب الله، واستنباط الأحكام منه

قيل إن رجلاً سأل الشافعى – رحمه الله – عن الإجماع ، أين هو فى كتاب الله ﷻ فاعتكف الشافعى على كتاب الله ، وخرج إليه ، وقال : لقد وجدته ! فقال السائل أين ؟

قال : قول الله – تعالى – : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ النساء: ١١٥

فسبيل المؤمنين : الإجماع

والذين يرون أن قراءة الإمام تغنى عن قراءة المأمون دليلهم على ذلك قول الله – تعالى – : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ يونس: ٨٨ – ٨٩

فالداعى موسى عليه السلام ومع ذلك قال الله – تعالى – (قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا) لأن هارون عليه السلام كان موافقاً على دعاء أخيه

هذا وغيره من ثمرة التوقف ، والوقوف عند كتاب الله ﷻ

نعم ، وقف أبو طلحة رضي الله عنه عند قول الله – تعالى – : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ آل عمران: ٩٢

فتصدق بأحب ماله إليه (البيرحاء) قال : يا رسول الله إن الله – يقول – : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ وأنت تعلم أن البيرحاء أحب مالى إلىّ فهى لله ﷻ فضعها حيث يريك الله ، فقال ﷺ : ويحك ، ذاك مال رابح ، ولكن اجعلها فى أقاربك ، فجعلها رضي الله عنه فى أقاربه

تصور ما سبب ذلك ؟

لا سبب له إلا أن دبّت روح القرآن فيه كما دبت فى غيره أمثال أبى الدحداح ، وابن عمر – رضى الله عنهما – وعن سائر صحابته – رضي الله عنهم أجمعين –

فهلّا تصورت ذلك فينا الآن ، وما أكثر ما نحب ، وتصور ما سوف يسفر عنه ذلك التوقف عند كتاب الله

- لو تصور تارك الصلاة نفسه وهو يقرأ قول الله – تعالى – ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ الماعون: ٤ – ٥ ، لصلى
- ولو تصور الظالم أخته فى الميراث قول الله – تعالى – فى المواريث من سورة النساء : ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾ النساء: ١٤ ، لما ظلم ، ولأعطاها حقها
- ولو تصور المتصدق قول الله – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ

فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٤

لما منّ على متصدق عليه ، ولما آذاه

- ولو وقف المتواكل الكسول عند قول الله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ الملك: ١٥ ، لانطلق وتحرك وأخذ بالأسباب ؛ ليكون متوكلاً على الله حق توكله
- ولو وقف قاطع الأرحام عند قول الله ﷻ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ محمد: ٢٢-٢٣ ، لوقف عند هذه الآيات وغيرها لوصل رحمه ، ولما قطعها ،
- ولو وقف سيء العشرة عند قوله - تعالى - : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ النساء: ١٩ وقوله - سبحانه - : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا ﴾ النساء: ٣٤

لما أساء عشرة أهله ، وما بغى عليهن سبيلاً

- ولو وقف المريض عند قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ الشعراء: ٨٠ ، لما يئس من رحمة الله ﷻ ولسأل الطبيب علاجه وهو على يقين أن الله - تعالى - يشفى
- ولو وقف اليائس عند قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ الشرح: ٦

وقوله - سبحانه - : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ الطلاق: ٧

وقوله - عز من قائل : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف: ٥٦

وقوله - تبارك اسمه - : ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ الطلاق: ١ لما يئس

- ولو وقف المسرف على نفسه فى ارتكاب الذنوب والمعاصى عند قول الله ﷻ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر: ٥٣ ، لتاب إلى الله ﷻ وندم على ما فعل ، ورجا رحمة الله ﷻ وهو على يقين ، لا على ريب
- ولو وقفت الأمة حكامها وملوكها عند آيات الكتاب الكريم الداعية إلى القوة : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الأنفال: ٦٠

والتعاون على البر والتقوى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ المائدة: ٢

والحكم بالعدل : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ النساء: ٥٨

لما تفجرت ثورات ، وما حدثت اضطرابات ، وما كان حالها من التخلف والتدهور

- ولو وقف كل من يتصدى للجاهلين عند قول الله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣ ، لما ضيع الوقت ، والجهد ، ولما كان منه عنف .

- ولو وقف آكل مال اليتيم عند قوله – سبحانه – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ النساء: ١٠ ، لما أكل ماله ظلماً وعدواناً

- ولو وقف كل راغب فى زينة الحياة الدنيا على الوجه الحلال عند قوله – تعالى – : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ نوح: ١٠ – ١٢ ، وعرف وجه الاستغفار الصحيح وهو طلب المغفرة من الله ﷻ بالسعى والعمل مع ترطيب اللسان به ؛ لاجتهد فى ذلك ، وهو على يقين أن الله – تعالى – مؤتيه ما وعد به ، فوعد الله حق ، وقول الله صدق ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

- ولو وقف المفتون بالسحر والأعمال عند قول الله – سبحانه – : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ البقرة: ١٠٢ ، لوفر الجهد والمال فضلاً عن صحة عقيدته ، وقال : يا من لا يُضَرّ إلا بإذنه اكشف عنا الضرر ، واقدر لنا الخير حيث كنا ، فهذه آية البقرة : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ البقرة: ١٠٢

الآية جامع مانع ، فيه شفاء من مرض خطير ، ومن وهم كبير ، ومن هم عظيم ، تصور لو أن هناك أمة من الجنود ، ولهم قائد ، بأمره يعملون ، أيكون من العقل والحكمة أن تصطلح معهم وتداهنهم وهم لا يملكون ؟ أم أنه من العقل والحكمة أن تتجه إلى قائدهم ، وأن تتعامل معه ، لأنك على يقين أن أمرهم إليه ، وبأدنى إشارة منه يفعلون إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لا شك أن الاتجاه إلى هذا القائد هو عين الحكمة بخلاف الإرهاق الذى يصيبك من مصالحة الجنود الذين لا يملكون ، فلو أنفقت عليهم مال الدنيا وأمرهم القائد بضربك ضربوك ، وقد ضيعت أموالك ، فلم تذهب إلى الدجالين ، وأنت على يقين أن أحداً منهم لن ينفعك ، ولن يضرك إلا بإذن الله ، فاسأل من بيده الإذن !

روح الجهاد فى سبيل الله

وللجهاد فى سبيل الله منزلة أى منزلة ، قال رب العزة : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ النساء: ٩٥ – ٩٦

وروى الترمذى من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من أحد من أهل الجنة يسره أن يرجع إلى الدنيا غيرُ الشهيد ؛ فإنه يحب أن يرجع إلى الدنيا ، يقول : حتى أُقْتَل عشر مرات فى سبيل الله مما يرى مما أعطاه الله من الكرامة)

والجهاد فى سبيل الله عبادة ، فقد كتب الله كما كتب الصيام ، وكما كتب الصلاة ، ففى الحديث : (خمس صلوات كتبهن الله فى اليوم والليلة)

وقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ البقرة: ٢١٦

وتتجسد روح القتال فى الفداء ، والتضحية بالنفس ، وهى أغلى رأس مال عند الإنسان ، وقد يعود المجاهد بالغنيمة ، وقد يعود بالشهادة ، والذى استشهد هو حى عند الله يرزق : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٩ – ١٧٠

والذى عاد بالغنيمة ما عاد بها إلا أن عرض نفسه للذهاب ، وهذا من روح الجهاد ، يجب أن تبث فى دماء المسلمين ، ليس هنالك غنيمة بلا جهاد مبذول ، أى ليس هنالك نجاح بدون استذكار ، وليس هناك حصاد بدون زرع ، وكفاح

وليس هناك رزق دون بذل جهد ، وليس على ما يقولونه الدجالون الذين يسألون مَنْ رأى فى منامه أنه يأكل لحماً ، يقولون : هل كان نضجاً أم نيئاً ؟ فإن قال : كان نضجاً قالوا له : رزق يأتيك دون عناء ، ودون أن تبذل فيه جهداً

إن الإسلام يقول كما جاء فى صريح الكتاب الكريم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ الملك: ١٥

ويقول : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ ﴾ الحج: ٧٨

والنبى ﷺ يقول : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)

والجهاد فى سبيل الله يورث هذا المعنى ، كما يورث الآباء أبناءهم مكارم الأخلاق ، سعد بن عبادة من الكرام المشهورين ، وورث ولده قيس بن سعد بن عبادة هذا الكرم ، اشترى من أعرابى إبلاً ليذبحها لصحابة رسول الله ﷺ وكان معهم على سفر ، قال للأعرابى بعنى على أن يكون الثمن تمراً تأخذه إذا رجعنا إلى المدينة ، فقال عمر للرجل : لا تبعه فإن التمر تمر أبيه لا تمره ، فقال قيس : ولم ؟ أتظن أن أبى يمنح تمره الناس ، ويمسكه على ولده ؛ فقال عمر : صدقت ، وقال للرجل : بعه ، فباعه ، وذبح للصحابة وأطعمهم ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : هذا البيت بيت كرم

وحدث أن أباه خرج من ماله قبل أن يذهب إلى الشام ، لورثته ، وترك امرأة له حاملاً ، وهو لا يدرى ، ومات ﷺ بالشام ، فلما ولدت امرأته ، قال قيس ابنه ﷺ نصيبى لأخى الوليد ، ولا أغير ما فعله أبى

وصدق الله العظيم : ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ آل عمران: ٣٤

وإذا كان الكرم يورث فإن الجهاد كذلك يورث ، كما يورث طيب العادات ، ألم يقل النبى ﷺ لفتيان يرمون : ارموا بنى إسماعيل ؛ فإن أباكم كان راميا

وقد قال العلماء فى بعث النبى ﷺ أسامة بن زيد ، وهو دون العشرين قائداً للجيش : إن من أسباب تلك البعثة أن أباه زيد بن حارثة قتل فى قومه ، فكأنه صاحب ثأر عند الروم ، الذين قتلوا أباه ، فهو حريص على النيل منهم أكثر من غيره

نعم ، إن روح جهاد أبيه لا شك سرت فيه ، فهو يجاهد حق الجهاد

والأمة جماعة وأفراداً لو سرت فيها روح الجهاد ؛ لعمرت أرضها ، واستثمرت خيرات الله التى عندها ، وأعملت عقولها ، وجنت بلا شك محصلة ذلك الجهاد عزاً ، وكرامة ، ومجداً ، وحضارة ، وكانت فى مقدمة الأمم

وميادين الجهاد واسعة ، وآفاقه بلا حدود ، وليس فقط فى ساحة القتال ، وإراقة الدماء ، إن المرء يقول : بذلت جهدى ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان من وسوسة الشيطان

انظر إلى ذلك الرجل العملاق ، صاحب رسول الله ﷺ وهو واثلة بن الأسقع ، الذى رآه النبى ﷺ بين صفوف المسلمين فى صلاة الصبح ، فسأله عن اسمه ، ثم عن سبب مجيئه ، فأخبره من هو ، وقال له : جئت أبايعك ، قال ﷺ : تبايعنى على الطاقة ؟ قال : نعم ، فبايعه ، وانطلق ﷺ وهو بلا شك يحفظ تلك البيعة ، ونادى منادى الجهاد مع رسول الله ﷺ فقال واثلة بن الأسقع ﷺ : من رجل يحملنى وله نصف ما يفتح الله به علىّ ؛ فحمله كعب بن عجرة فانطلق ، وكان مع خالد بن الوليد فى دومة الجندل فى تبوك ، وغنم ، وجاء بغنيمته من الإبل ، وأوثقها عند خيمة كعب ، ودخل عليه ، وسلم ، وقال : اخرج فخذ نصف ما على بابك كما اتفقنا ؛ فضحك كعب ، وقال : أتظننى حملتك ابتغاء هذا ، والله ما حملتك إلا ابتغاء وجه الله ، فبارك الله لك فيما أعطاك ، ولم يأخذ منه شيئاً

والشاهد فى أن واثلة ﷺ لم يكن عنده ما يحمله ، فنادى : مَنْ رجل يحملنى وله نصف ما يفتح الله به علىّ ، كان بوسعه أن يتخلف عن الغزوة ؛ لأنه لا يجد دابة تحمله ، وينتهى الأمر ، وكان من الدين الواسع أن يقبل عذره ، لكنه رأى أن من طاقته أن يركب مع أحد ، وليكن له نصف ما يفتح الله به عليه ، ففعل ، وغنم ، ولم يؤخذ منه شىء ، قس على ذلك عشرات المسائل والقضايا التى تكون لنا فيها طاقة ونحن نقول : لا طاقة لنا

من أول ذلك الذى سأل بقالاً واحداً عن شىء فلم يجده عنده ؛ فرجع

وكان بوسعه أن يسأل بقالاً آخر ، أو اثنين

- مروراً بمن يظن فى يوم شتاء أن السماء قد تمطر ، فقبع فى بيته ، ولم يخرج لتحصيل رزقه
- ومن كان على سفر ؛ فألغيت ، فقال : بركة يا جامع ، وكان بوسعه أن يسافر على رحلة أخرى
- ومن كان بوسعه أن يقضى حاجة ملهوف لكنه نظر فى ساعة يده واعتذر له بأن وقت العمل قد انتهى ، وعليه أن يمر عليه فى وقت آخر
- ومن أراد أن يريح عقله كما يقولون فقال للذى استشاره : صل صلاة استخارة والمستشار كما قال النبى ﷺ : مؤتمن ، وليس من الأمانة ألا يعمل عقله ، ويبدى خالص نصحه ، ويكتفى بأن يقول له : صل صلاة استخارة

جاءت فاطمة بنت قيس – رضى الله عنها – للنبى ﷺ وقالت : إن رجلين خطباها ، هما معاوية بن أبى سفيان ، وأبو جهم ، فأيهما تختار ، فقال لها ﷺ : أما معاوية فصعلوك لا مال عنده ، وأما أبو جهم فرجل لا يضع العصا عن عاتقه ، تزوجى أسامة ، قالت : فكرهته ، فلما قال النبى ﷺ : تزوجى أسامة ، تزوجته ، فإذا فيه الخير ، وربما قالت – رضى الله عنها – وكانت من فضلى النساء وأعقلهن : كرهته ؛ لأن أسامة ﷺ كان أسود

والشاهد أنه ﷺ لم يقل لها كما يقول كثير من الناس : صل صلاة استخارة ، وإنما قال لها : هذا لا يصلح ؛ لأنه لا مال عنده ، وذاك لا يصلح ؛ لأنه كثير السفر ، أو كثير الضرب للنساء ، وقدّم لها البديل ، ما أرجعها صفراً

وحين وعد محمد بن سلمة ﷺ رسول الله ﷺ وعداً ، ثم وجد نفسه على احتمال ألا ينفذه ، عافت نفسه الطعام والشراب ثلاثة أيام ، حتى كاد يهلك ، ولم يتذوق لقمة ، ولم يتناول شربة حتى علم رسول الله ﷺ بقصته ، وقال له : عليك الجهد ، أى ابذل جهدك – وهو من الجهاد – وقد قام بما وعد به خير قيام ، وكتب الله له الفوز ومن معه ، بأن قتلوا عدو الله – تعالى – ، ورسوله ﷺ كعب بن الأشرف ، وانتهاء بما عليه حال الأمة القوية فى الحقيقة الضعيفة فى الظاهر ، التى بوسعها أن تكون فى طليعة الأمم ، وفى صدارة العالم ، بما حياها الله به من دين يدفع إلى بذل أقصى الجهد ، ومن

توفيق الله ﷻ عباده المؤمنين ، ونصره إياهم : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الروم: ٤٧

ومن عوامل للتقدم ، تتمثل فى أرض حقيقية ، ومياه جارية ، وأيد عاملة ، وعقول جبارة ، وهى تصنع لنفسها ومن هواها المعوقات ، وتضخم الأمور التافهة ، وترضى بالدون ، وكأنها كما قلت فى قصيدة لى :

كأنا لم نكن من نسل قوم
إذا دعيت نزال أتوا رماحا
وفيهم سيد الدنيا بحق
تقدم فى المعارك ما استراحا
فهم فى الدين إخوان وجند
غدواً كان ذلك أو وراحا
وما منعوا بلالاً من أذانٍ
وقالوا كان والده رباحا
وسل عنهم قريشاً يوم بدر
لقد كانوا بلا شك صحاحا
وسل عنهم مسيلمةَ أذلوا
وان تجهل فسل عنهم سجاحا
فما للناس قد صاروا كسالى
وعزم الناس قد أمسى نواحا
إذا اجتمعوا لخطب صغروه
ونام الليل معظمه ارتياحا
وبعد النوم فى سَعْدٍ وبشر
كنعنانى إذا قاموا صباحا

إن روح الجهاد إذا دبت فى الأمة رأينا الكسل ذنباً يستحق التوبة ، والله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين

ورأينا التخلف قد صار ذكرى بغيضة ، يستحى المسلمون أن يذكروها ، ورأينا الأولوية المنكسة فى عنان السماء ، ورأينا البائسين المحرومين على خير حياة ، ورأينا الجهل قد توارى ، وبدت آيات العلم فى كل مكان واضحة المعالم ، تقول للدنيا من حولنا : ها نحن أولاء المسلمون ، المؤمنون بالله ، نغزو الآفاق ، ونقدم الخير للناس ، ونربو فرق غيرنا لا بزهو الكلمات ، ولا بماضى الحضارات ، وإنما بالحاضر المزدهر الذى صنعناه بأيدينا ، والله راعينا ، ونحن لا نفخر على غيرنا ولا نتباهى ، وإنما نقدم لغيرنا الخير ، فما من مسلم يزرع زرعاً ، أو يغرس غرساً ، فيأكل منه إنسان أو طير أو حيوان إلا كان له به صدقة ، كما قال رسولنا ﷺ ، وروى البخارى

بل إننا سوف نجد الشقاق لم يتم ، حيث بذلنا جهدنا فى الإصلاح بين الزوجين ، وبعثنا الحكمين من أهله ، ومن أهلها ، حتى لو انتهى الأمر إلى فراق ، فالفراق عندنا فراق جميل دون شقاق ، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ النساء: ١٣٠

إن وجه الحياة سوف يتغير إذا جاهدنا فى الله حق جهاده

الفصل الثاني

العبادة التي لم ينص عليها الفقهاء

العبادة التى لم ينص عليها الفقهاء

هنالك عبادات كثيرة ، لم ينص عليها الفقهاء ، فقد جرت عادتهم رحمهم الله أن يذكروا فى باب العبادات : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، ثم تراهم بعد ذلك يقولون : باب النكاح ، ثم الطلاق ، ثم الرجعة ، ثم الخلع ، ثم باب النفقات ، ثم باب البيوع ، والمعاملات ، ثم الجهاد ، ثم الحدود ، ثم باب أمهات الأولاد

وكل ذلك بلا شك من العبادات ؛ لأن لذلك كله أحكاما شرعية ، والتزام المسلم بهذه العبادات دليل على عبادته لله ﷻ

وهناك عبارات أخرى تتمثل روحها فى الحياة استقراراً ، ودفئاً ومودة ، ورحمة ، ومن ذلك كتاب البر والصلة

روى الترمذى من حديث بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبى ﷺ : يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم مَنْ ؟ قال : أباك ، ثم الأقرب فالأقرب

نعم بر الوالدين عبادة ، قال الله ﷻ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الإسراء: ٢٣ - ٢٤ ، ثم قال ﷻ : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ الإسراء: ٢٥

قال المفسرون : ذلك فيما يكون مما ظاهره العقوق من رفع صوت ، أو إبداء ضجر من الوالدين ، لكن النية على خلاف ذلك ، أى فى نفس الابن والابنة طاعة وبر ، ولا ينوى بمثل هذا الارتفاع فى الصوت العارض ونحوه عقوق الوالدين ؛ لذا قال عز من قائل : (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا)

وفى هذا عزاء من الله ورحمة للذين ربما قتلوا أنفسهم ، وظنوا أنهم عاقون من أجل بادرة كانت منهم ، فالله ﷻ يطمئنهم قائلاً : لا تحزنوا ، فهو سبحانه أعلم بما فى نفوسكم ، فأنتم لا تقصدون بذلك عقوقاً ، والله يعفو عن كثير

وأنت إذا أمعنت النظر فى علاقة المسلم بغيره من أرحامه وأقاربه ، ورفاقه ، وجيرانهم ، وغيرهم ، وجدت كلمة (حق) تصاحب هؤلاء جميعاً ، حتى بين الزوجين ، يقال : حق الزوج على زوجته ، وحق الزوجة على زوجها ، وحق الجار ، ومنه مَنْ له حق الجوار وحق القرابة مع حق الإسلام ، ومنه من له حق الجوار والإسلام ، ومنه مَنْ له حق الجوار ، وهو الجار الجنب ،أى من الجيران مَنْ له ثلاثة حقوق ، ومنهم من له حقان ، ، ومنهم من له حق واحد ، وكذا تجد حق الضيف ، وهكذا ، إلا الوالدين ، فلهما (البر) لا يقال : حق الوالدين ، ولكن يقال : بر الوالدين ، وفى ذلك إشارة ، ودلالة على أن لهما الحق وزيادة ، فالبر جامع لكل معانى الخير ،

وقد روى البخارى وغيره أن شابا جاء النبى ﷺ راغباً فى الجهاد معه ؛ فسأله ﷺ : ألك والدان ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد ، فانظر كيف جعل الوالدين

ظرفاً للجهاد ، وقد جاء أن للوالدين براً بعد وفاتهما ، وهو فى صلة من كانا يصلان ، وفى بر أصدقائهما

وقد روى المبرد فى كتابه (الكامل) أن رجلاً اسمه أبو ذر – غير الصحابى المعروف ﷺ دفن ولداً له شابا فسمعه الناس يقول عند قبره :

ولدى ، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، فلا ندرى ما قيل لك ؟ وبم أجبت ؟ ثم قال :

(اللهم اجعل ما قصّر من حقى عليه شفاعة له فيما قصر فيه من حقك عليه)

وكأن هذا الدعاء قد أخذ الناس ؛ فسألوه قائلين :

كيف كان بره بك ؟

فقال : ما مشى نهاراً إلا ورائى ، وما مشى ليلاً إلا أمامى ، وما رقى سطحاً وأنا تحته ، وما مد يده إلى لقمة وهو يأكل معى خشية أن يكون بصرى سبقه إليها ،

فانظر إلى هذا البر ، وكيف عبر عنه بقوله :

(اللهم اجعل ما قصّر من حقى عليه شفاعة له فيما قصر فيه من حقك عليه)

فما عسى أن يقول والد لم يبره ولده بشىء من ذلك !

إن العقوق فى هذه الأيام صار متفشياً إلى حد كبير ، وقد عم البنات والبنين ، عشنا فى زمان ما كنا نرى فيه عقوقاً لبنت ، وقد صرنا فى زمان صارت فيه البنات أشد عقوقاً من البنين ، حيث تعلن عصيانها ، وسخريتها ، من أبويها ، واستخفافها بعقولهما ، وقد تتزوج دون ولى ، ذلك الزواج الذى يسمونه عرفياً ، وقد تترك بيت أبويها ، وتقيم من صاحبة لها ، وقد تستقل بنفسها ، وقد تصر على السفر خارج البلاد لدراسة وغيرها دون موافقة أبويها ، فضلاً عن اختراقها قواعد شريعتها بأن سافرت دون محرم لها ، وغير ذلك

وأسباب العقوق واضحة ، حيث الإعلام الفاسد ، والبنية الفاسدة ، والرفقة السيئة ، والمذاهب الرديئة ، والدعوة إلى التحرر ، وقد يكون الوالدان أنفسهما سببا فى هذا العقوق من ترك الحبل على الغارب للأولاد منذ نعومة أظفارهم ، ومن سوء التربية ، ومن دعوى الصحبة والصداقة ، وغير ذلك

والعجيب أن الآباء والأمهات الذين يشكون عقوق أبنائهم ، وبناتهم يقولون : إن أبناءهم وبناتهم يصلون ، ويحرصون على الصلاة ، ويحضرون الدروس الدينية ، ويصومون ، ويحفظون أجزاء من القرآن الكريم

ذلك الذى لا يثير عجباً عند قراءة هذا الكتاب ، فإن هؤلاء الشباب عرفوا العبادة جسداً لا روحاً ، والحال كذلك فى الآباء ، والأمهات الذين يصلون ، ويصومون ، ويتلون كتاب الله ﷻ ، ولا يحسنون إلى أبنائهم ، وبناتهم، ذلك أب لا يترك فريضة إلا أداها فى المسجد ، وفى جماعة ، ومع ذلك لا ينفق على أولاده ، ولا يحسن عشرة زوجته ، وتلك أم ، ربما تكون من الذين يقومون بالليل ، ويعتكفون فى مصلاهم ، وربما يبكون من رقة لست أدرى بما أصفها ، ومع ذلك تراها مهملة أولادها ، مقصرة فى حق زوجها عليها

فإن سألته أو سألتها قالوا لك العبارة الشائعة الفاسدة : (لا) هذه نقرة ، وتلك نقرة أخرى

فالعبادة فى كفة ، والمعاملة فى كفة أخرى ، وتلك مأساة الذين لم يأخذوا من الدين جوهره ، وروحه ، وإنما عرفوه شعائر تؤدى من غير روح ، وشكل يسبى النواظر ، ومنه التبرك باليمين ، يمين الجارحة دون يمين الله التى ذكرها فى كتابه الكريم فى سورة البلد : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ

إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ البلد: ١١ - ١٨

قاتل كثير من الناس فى يمين الجارحة ، فلا أكل إلا باليمين ، ولا شرب إلا باليمين ، ولا لبس شىء إلا باليمين ، وهذا لا يحتاج إلى مبالغة ، فهو بركة بلا شك للقادر على استعمال اليمين ، لكن اليمين الحق هى روح تلك اليمين ، وهى ما نص عليه الكتاب الكريم من فك رقاب الناس ، ومن إطعام الطعام ، والتواصى بالصبر ، والتراحم وانظر إلى صلة الرحم ، وتأمل فيها صدر المتضايفين (صلة) ،

كنا فى زمان الطلب نسمع مَنْ يقول من شيوخنا وزملائنا : (العلم رحم بين أهله) حين يزور بعضنا بعضاً ، و يعطف بعضنا على بعض ، ينعطف عليه انعطاف الغصن على الغصن ، فكانت قلوبنا تهتز ، وصدورنا تنشرح عند سماعها ، فما بالك بالأرحام الذين شرع لهم أن يسألوا بها

قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء: ١

فمن سألك بالله أعطيته ، وكذلك من سألك بالرحم أعطيته

روى أن رجلاً دخل على معاوية باسم الرحم ، ولم يكن يعرفه ، فلما دخل عليه سأله عنها ؛ فقال الرجل : أنا رحمك من آدم عليه السلام فأعطاه درهماً ، فقال : أسألك بالرحم وتعطينى درهماً فقط ، فقال : معاوية : لو أعطيت كل من سألنى بالرحم التى سألتنى بها لما وجدت لك هذا الدرهم ، وذلك لأن الرحم بعيد والأرحام به كثير ، لكنه أعطاه ، واليوم قد يسأل أخ شقيق أخاه فلا يعطيه ما يساوى الدرهم الذى أعطاه معاوية رضي الله عنه من سأله برحم آدم عليه السلام فتصور أمة يصل فيها الناس

أرحامهم ، والصلة بحسب الحال ، فقد يكفى فيها السؤال ، وليس شرطاً أن تكون بالمال ، إلا إذا كان رحم غنيا ، وآخر فقيراً محتاجاً إلى معونته

وقد قال النبى ﷺ فى ذلك إنه صدقة وصلة ، أى أن القادر على التصدق على أرحامه له أجران : أجر الصدقة ، وأجر الصلة

تصور كيف يشعر هؤلاء بالمعانى السامية من الصلة ، والمودة ، والرحمة ، والعطاء ؛ فإن الجفوة بين الناس لا سيما الأرحام تزيد الحياة جفافاً ، والقلوب أسى ، والحلوق عضة ، والأحياء آلاماً ؛ فليس فى الدنيا ألم أشد من ألم الشعور بالوحدة ، الذى عبر عنه الأقربون بالجمل الأجرب ، ولله در أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – حين تمثلت بقول الشاعر :

مات الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى كنف كجلد الأجرب

والذين ماتوا ممن يعاش فى أكنافهم قد يكون موتهم أهون من حياة كثيرين ، لا يصلون ، فالموت قضاء الله ﷻ ولكل أجل كتاب ، وكل شىء هالك إلا وجهه ذلك أن الموت الحكمى يكون أشد تأثيراً على النفوس النابضة بالحياة ، المتطلعة إلى مقتضى معانيها من الموت الحقيقى

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميّت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً
كاسفا قلبه قليل الرجاء

إن الحياة التى يمكن أن نطلق عليها (حياة كلا حياة) يقال فيها : هى حياة والعدم سواء ، بل إن العدم عند الذين يشعرون أفضل منها .

ولطالما تمنى الناس موت مَنْ وجوده عاقاً ، وقاطعاً ، ومسيئاً ، أما سمعت قول الأم فى ابنتها التى حملت ملابسها ، وهربت مع ذئب من الذئاب : يا ليتها ماتت ؛ لأنها لن تفضح بموتها ، فالموت حق ماض على رقاب الناس ، لكنها تفضح بفعلتها السيئة ، فضلاً عن الأوهام التى تحيط بها ، والأوجاع التى تكتنفها ، والحسرات التى تتجرعها حيناً من بعد حين ، منامها أضغاث أحلام ، ويقظتها سلسلة بغيضة من الآلام ، بخلاف الموت ، أى الحقيقى الذى يصحبه بلا شك ألم الوداع ، لكن هذا الألم مع الأيام يخف ، وقد قيل إن كل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر ، إلا الحزن ، فإنه يبدأ كبيراً ثم يصغر ، وقد يحجم صغيراً وهو كبير ، وذلك إذا علم الحى أن ميته فى جنة عرضها السماوات والأرض ، قالت الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك ﷺ وعنها – للنبى ﷺ وقد استشهد ابنها حارثة بن سراقة يوم بدر : إن كان فى الجنة صبرت واحتسبت ، وإن تكن الأخرى أرأيتك ماذا أفعل ، فقال لها ﷺ : إنها ليست جنة واحدة ، وإنما هى جنان ، وإن ابنك لقى الفردوس الأعلى منها ؛ فقالت : إذاً أصبر وأحتسب

وتهون المصيبة كذلك ، أى مصيبة الموت بالرضا والتسليم

كما تهون بالعزاء ، وقد قال أبو بكر ﷺ : لا مصيبة مع العزاء ؛ وذلك لأن العزاء تقوية للمصاب

وهكذا ، لكن ماذا يفعل المكلوم الذى كلم فى ولده أو فى رحمه ، بأن له أولاداً ولكن يعقونه ، وأن له أرحاماً ، ولكن يقطعونه

وقد قال لى أحد الثقات : إنه كان معاراً بإحدى الجامعات العربية ، وكان قبيل نزوله إلى القاهرة يكتب أسماء أرحامه ، لكى يشترى لكل منهم هدية كما هى

العادة ، قال لى : كنت أشعر بشىء عجيب ، هو كثرة الأقارب ، والأحباب كثرة بالغة ، أقسم بالله أنه كتب فوق المائة ، ثم وضع رأسه بين راحتيه ، وقال : سبحان الله ، كل هؤلاء أرحامى ، ولا فائدة فى واحد منهم ، فقلت له : تذكر قول الشاعر:

ما أكثر الإخوان حين تعدهم
لكنهم فى النائبات قليل

وأخذ الرجل يستطرد قائلاً من قسم مؤكد : إن هؤلاء وهؤلاء لا يعرفوننى إلا يوم يأتون إلىّ متظاهرين بفرحتهم بعودتى ، ومعبرين عن شوقهم إلىّ ، وبعد أن يأخذ كل منهم هديته يمضى ولا يعود ، فضلاً عن أن واحداً منهم لا تعجبه تلك الهدية ، فما رأيت واحداً قد رضى بما أهديته ، سبحان الله

قلت له :

ربما كان هذا وهماً منك ، وربما كانت هذه هى الحقيقة

والوهم لا يعول عليه ، والحقيقة علاجها أن تصبر وتحتسب ، فما زال معك من الله ظهير عليهم ما دمت كذلك ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، حيث جاء رجل إلى النبى ﷺ يشكو أرحامه بأنه يصلهم وهم يقطعونه ، ويحسن إليهم ويسيئون إليه ، فقال له النبى ﷺ ذلك

والصبر من العبادات ، والاحتساب غاية العبادات : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن احتسب نفقته على ولده صدقة كانت له صدقة) رواه البخارى

فأى علاج أفضل من ذلك لمن علم أنه يُحْسن ولا يُحْسَن إليه ، ويصل ويقطعه من يصله ، ويعطى ويمنعه الذى يعطيه أنه ماض على سنة خير المرسلين ، سيدنا رسول الله محمد عبد الله ، أى على مكارم الأخلاق التى بعث ﷺ ليتممها ، وقد سأل عنها جبريل عليه السلام وسأل جبريل عنها رب العالمين ﷻ فقال له : أن تصل مَنْ قطعك ، وتعطى من منعك ، وتعفو عمن ظلمك

ولأن الإسلام دين المعادلة فعلى الطرفين أن يلتقيا على الصلة ، بأن يبادر كل منهما إلى صلة رحمه ؛ ذلك أن من أهم قطيعة الأرحام أسبابها اعتقاد بعض الأرحام أن الخطاب الدينى فى ذلك ليس موجهاً إليه هو ، وإنما هو موجه إلى الطرف الآخر من أرحامه ، إنه يرى ألا صلة عليه ؛ لأنه الكبير ، أو لأنه الصغير ، أو لسبب ما ، يتضخم عنده ، فيرى أنه إن كان كبيراً فى مقام الأب ، والأب يؤتى إليه ، ولا يأتى أولاده ، وما ذلك بصواب ، وإن كان صغيراً ظن نفسه أهلاً للشفقة والإحسان ، وأنه ربما كان متحرجاً من زيارة الكبار ؛ لأنهم مشغولون بكبار الأعمال ، ومنوطة بهم المسئوليات الجسام ، وقد يدّعى مثل هذا المرض ، وما هو بمرض خطير يستدعى أن يزوره الآخرون ، فما به من شلل ولا عطب ، وإنما هو مريض كما يمرض فلا يبين الناس ، أصحاب السكر والضغط ، والصداع ، وغيرها من الأمراض المزمنة التى لو أنصف المصاب بها لوصل رحمه من أجل أن يشفيه الله ﷻ منها ومن غيرها ، فقد قال ﷺ : داووا مرضاكم بالصدقة

سر روح العبادة فى سياق الآيات

فكرة أراها جديدة ، هى فكرة روح العبادة فى سياق الآيات القرآنية ، بمعنى أنّ الصلاة تذكر ومعها ما يدل على روحها المشرقة فى معانٍ أخرى ، وكذا سائر العبادات

فى الصلاة

(١) فأنت تقرأ قول الله ﷻ فى آية البقرة (٤٥) : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ البقرة: ٤٥

فيذكر الصبر مع الصلاة ، ولذلك تتعجب من حال مصل ضجر ، لا يعرف الصبر ، وفى الصلاة نفسها صبر ، من حيث الطمأنينة ، وإسباغ الوضوء قبلها ، ومن حيث انتظارها ، فالمنتظر صلاته فى صلاة كما جاء فى الأحاديث الصحيحة

(٢) وأنت تقرأ قول الله – تعالى – فى آية البقرة (١٤٨) : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ البقرة: ١٤٨

فمن روح الصلاة استباق الخيرات ، وفيها هى كذلك استباق ، حيث ورد فى الصحيح أن الناس لو يعلمون ما فى الصف الأول لاستهموا عليه ، وفى البخارى فى يوم الجمعة : مَنْ جاء فى الساعة الأولى فكأنما قدم إلى الله – تعالى – بدنة إلى آخر الحديث ، وجاء عن النبى ﷺ بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة

(٣) ومن لطائف التدبر أن الله – تعالى – يقول فى آية البقرة (١٥٣) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ البقرة: ١٥٣

ما قال ربنا : (إن الله مع المصلين)

وإنما قال : (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ) عبر بروح الصلاة ، ومن روح الصلاة الصبر

ولعلك تجد هذا مع الاستقراء شائعاً فى آيات الكتاب العزيز ، فليس فيه : إن الله مع الصائمين ، ولا المزكين ، ولا الحجيج ، وإنما تجد إن الله مع المتقين ، البقرة (١٩٤)

والسبيل إلى التقوى جميع العبادات ، فإذا نطقت العبادات وأثمرت ، وكانت عبادات لها روح نطقت بالتقوى ، وأثمرت التقوى ، فكانت معية الله

والله – تعالى – يقول : ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٣

ويقول سبحانه : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ البقرة: ١٨٩

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأنفال: ١٩

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٦

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل: ١٢٨

ولن يكون المرء مؤمنا وهو تارك للصلاة ، ولن يكون مؤمنا وهو مفطر رمضان عمداً ، أو تاركاً للزكاة مع بلوغ ماله النصاب

وكذلك لن يكون صابراً ، ولا تقياً ، ولا محسناً مع تركه العبادات ، فالعبادات فى الحقيقة سبيل الوصول إلى التقوى ، والإيمان ، والصبر ، والإحسان التى هى مواضع معية الله ﷻ

(٤) وأنت تقرأ قول الله ﷻ فى آية المائدة (٥٥) : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ المائدة: ٥٥

وتجد فى سياق الصلاة : الإيمان ، وإيتاء الزكاة ، والامتثال لأمر الله ﷻ ونواهيه ، أى وهم راكعون له سبحانه ممتثلون لأوامره ، وأنت تعلم أن من أوامره الرفق ، والتيسير ، والعدل ، والحق ، والإحسان ، والعطف ، والعفو ، والصفح ، والتسامح ، فما أمر ربنا ﷻ إلا بمعروف ، وما نهى ﷻ إلا عن منكر

(٥) وكذلك قول الله – ربنا فى آية النساء (١٦٢) : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ النساء: ١٦٢

فأنت ترى ذكر الصلاة على وجه المخالفة لتبعية الإعراب ، حيث عدل عن الرفع إلى النصب (وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ) نصباً على المدح ، أى أمدح المقيمين للصلاة ، أو أخص المقيمين للصلاة لقرع الأسماع عند سماعها ؛ لأهميتها ، ولكن مع سياق الرسوخ فى العلم ، والإيمان ، والزكاة ، وخص الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وهو يتطلب أعمالاً كثيرة ، من روح الصلاة أن تؤدى تلك الأعمال

(٦) كذلك فى قول الله ﷻ فى آية النساء (١٠٣) : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ النساء: ١٠٣

تجد فى سياقها أخذ الحذر ، وعدم الوهن فى ابتغاء الأعداء ، ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ النساء: ١٠٤

فمن روح الصلاة أن تكون قوياً ، لما فيها من مدد ربانى يشحذ همة المصلي ، ويصفى نفسه من كدر الخوف والجبن ، فقد اتصل بالله قوة القوى ،

والثابت المعهود عن سيد الوجود ﷺ أنه كان إذا حزنه أمرٌ هرع إلى الصلاة ، أى إذا اشتد به أمرٌ أسرع إليها ، فهل ترى ذلك إلا دليلاً على أنها تزيد النفس قوة

(٧) وتأتى الصلاة بين نهى وأمر ، وذلك فى آيات هود (١١٣ - ١١٥) حيث يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ هود: ١١٣ - ١١٥ فالمصلي لا يركن إلى الذين ظلموا ، وإنما يركن إلى المظلومين ، يدافع عنهم ، ويسعى فى طلب حقهم ، والمصلي يصبر ، ويحسن كل عمل يقوم به

(٨) وتأتى الصلاة فى سياق التوحيد ، وذلك فى خواتيم سورة الإسراء ، حيث يقول الله – ربنا – فى الآيتين (١١٠ ، ١١١) : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا

﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء: ١١٠ ، ١١١

والعجيب أنك تجد من المصلين من يذهب إلى الدجالين ، والعرافين ، ويزعم أنهم يعرفون الغيب ، ويملكون تحقيق النفع له ، فأين روح الصلاة فى ذلك المصلي الذى أمره الله – تعالى – مَنْ كتب عليه الصلاة بألا يجهر بصلاته ، وألا يخافت بها ، وأن يبتغى بين ذلك سبيلاً ، حامداً الله على نعمة التوحيد مؤمناً بأن الله ﷻ لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل مكبراً إياه تكبيراً ، مصغراً ما دونه ، متوكلاً عليه وحده

(٩) واقرأ قول الله – تعالى – فى آيات مريم (٣١ - ٣٣) : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ مريم: ٣١ - ٣٣

تجد أن الصلاة جاء فى سياقها البركة حيث كان

والزكاة معالجة للفقر والحرمان ، وبر الوالدين ، ونفى الجبروت والشقاوة ، والسلام فى البدء ، والختام ، ويوم يحشر الناس إلى الملك الديان ،

عجيب أن تجد مَنْ يصلي على خلاف ذلك ، عاقاً لوالديه ، جباراً ، شقياً ، مشعل نار الحرب حتى بينه وبين نفسه

(١٠) وكذلك قول الله ﷻ فى آيتى مريم (٥٤ ، ٥٥) يقول الله – تعالى – : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ مريم: ٥٤ ، ٥٥

فالمصلي صادق الوعد ، والمصلي يأمر أهله بالصلاة ، والزكاة ، وقد قال تعالى :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ طه: ١٣٢

(١١) وفى قول الله ﷻ فى آية مريم (٥٩) : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ مريم: ٥٩

دليل على أنّ من كان يصلي لا يتبع الشهوات (المحرمة) فالذى يضيع الصلاة يتبع الشهوات ، فإن رأيت مصليا يصلي ، ويتبع الشهوات فاعلم أن صلاته جثة بلا روح ، فلو سرت روح صلاته فى دمائه لاجتنب الشهوات ، وصدق الله العظيم إذْ يقول : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ العنكبوت: ٤٥

(١٢) وفى سورة طه الآيتين (١٤ ، ١٥) يقول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ طه: ١٤، ١٥

فجاء فى سياق الصلاة العبودية لله ﷻ والسعى إلى نيل رضوان الله – تعالى – فى الآخرة ، فقوله – تعالى – : (لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ) يدل على أن هناك سعيا ، ولا شك أن السعى كما قال الله – ربنا – : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ الليل: ٤ ، أى ما بين سعى فى الصالحات ، وسعى فى الموبقات ،

ومن روح الصلاة أنها خير معين على السعى فى الصالحات

(١٣) وفى سورة الحج الآية (٤١) يقول الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ الحج: ٤١

فقد جاء فى سياق الصلاة إيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وكل ذلك من روح الصلاة

(١٤) وآخر آيتين من سورة الحج يقول ربنا – تعالى – فيهما : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ الحج: ٧٧، ٧٨

فمن روح الصلاة مع عبادة الله – تعالى – فعل الخيرات ، والجهاد فى الله حق جهاده ، والاعتصام بالله ، أى بحبله المتين ، وهو دينه ، وصراطه المستقيم

(١٥) وتأمل صدر سورة المؤمنون الآيات (١ – ١١) حيث يقول الله – تعالى – :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ المؤمنون: ١ – ١١

فتأمل ما بين الصلاتين (ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ)

و (وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ) من إعراض عن اللغو ، وفعل للزكاة ، وحفظ للفروج إلا على الأزواج ، وحفظ الأمانات ، ووفاء بالعهود ، وجميع ذلك من روح الصلاة

وفى الصيام

يقول الله ﷻ فى آية البقرة (١٨٣) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ البقرة: ١٨٣

فروح الصيام التقوى ، وقد ذكرت ذلك بشىء من التفصيل فى روح الصيام

وفى آية الأحزاب (٣٥) يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٥

وإنك لتجد فى هذه الآية أن روح كل عبادة تتضافر مع روح أختها لينتهى الأمر إلى ذكر الله ، أى ذكر أحكام شرعه ، ووعده ، ووعيده ، ثم اقرأ الآية (٣٦) بعدها ، وهى قول الله ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٦

وفى الحج

(١) يقول الله – تعالى – : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ البقرة: ١٨٩

فانظر كيف جاء فى سياق مراعاة المواقيت فى كل شىء فى عدة المرأة ، وفى الصلاة ، وفى الصيام ، وفى الديون ، وكيف جاء الحديث عن البر الذى ليس إتيانا للبيوت من ظهورها على عادتهم فى الجاهلية ، وليس مجرد أشكال ، وإنما البر بر من اتقى ، وكيف جاء فى سياق التقوى التى لم تفارق عبادة من العبادات ، وهى ثمرة كل عبادة بلا شك

وفى الحج كذلك فى الآية (١٩٦) يقول الله – تعالى – : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ البقرة: ١٩٦

وفى الآية بعدها (١٧٩) يقول بنا – تعالى – : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ البقرة: ١٩٧

وقد ذكرت تفصيل ذلك فى موضعه من روح الحج بالإضافة إلى تدبر التعبير بالناس دون المؤمنين والمسلمين فى عموم آيات الحج تبياناً من ربنا إلى ضرورة مراعاة معنى الناس خصوصاً فى الحج ، حيث إن الغريب فى حاجة إلى من يؤنسه

الفصل الثالث

روح الدعـــاء

روح الدعـــــاء

بإجماع العلماء الدعاء عبادة ، بدليل قول الله – تعالى – : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر: ٦٠

والسؤال : هل دعاؤنا ذو روح ، بمعنى أنه صحيح ، وأنه دعاء حى ، يستجيب الله – تعالى – لنا فيه إذا دعوناه ، أم أنه دعاء طويل عريض ، بلا روح ، تعلو فيه الأصوات ، وتتعدد فيه الألحان ، وتصحبه العبرات ، وأحيانا النواح ، وذلك كما قال العلماء : من الاعتداء فى الدعاء ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الأعراف: ٥٥

وذكر المناوى فى فيض القدير أن الطريقة التى يسلكها بعض الناس فى الدعاء ، وهى طريقة الألحان لو قدم بها الناس حاجتهم إلى ملك من ملوك الأرض لعاقبهم عليها فما بالنا بملك الملوك ﷻ ، وقد ثبت أنّ صحابة رسول الله ﷺ كانوا يلحون فى الدعاء ، ولا يسمع بعضهم بعضا ، من أجل ذلك أردت أن أقدم فى هذا الفصل روح الدعاء فى الإسلام ، والتى تتمثل فى المستند الذى يستند عليه الدعاء ، حتى يصعد إلى رب الأرض والسماء ، وهو سبحانه السميع القريب المجيب

فقـــه الدعـــــاء

ما رأيك لو رأيت إنساناً يصلي بعينيك ، فوجدته خاشعاً على أكمل وجه للخشوع ، إذا وقف كالخشبة ، لا يتحرك فيه شيء ، وإذا ركع استوى ظهره كالطريق المستقيم فلا عوج ، وإذا قام من ركوعه اعتدل حتى عادت عظامه إلى مواضعها ، وسمعته يقول : (سمع الله لمن حمده) وبدا لك من نبر صوته أنه من الحامدين الشاكرين ، ورأيته وهو يهوى ساجداً على أتم ما يكون السجود ، أطال وهو يقول : (سبحان

ربى الأعلى) ويدعو بما وسعه الدعاء ، ولو كانت الصلاة جهرية ، فسمعته مع ذلك يقرأ بعد فاتحة الكتاب سورة البقرة ، إن كان يصلي منفرداً ، لا إمام جماعة ، فيطيل عليهم بقراءتها ، فأعجبتك تلاوته ، ما رأيك لو قال لك أو قال لك ذو ثقة : إن هذا الرجل قد صلى بلا وضوء ، عندئذ تقول : صلاة غير صحيحة ، وصلاة غير مقبولة ، سبحان الله مع كل ما رأيت وأعجبك ، لقد احتقرت صلاتك بالنسبة إلى ما رأيت من صلاته ، وقلت : إننى لا أحسن تلاوة القرآن بالنسبة إلى ما سمعت من تلاوته ، حيث ذكرك بتلاوة أبى موسى الأشعرى ﷺ التى قال له النبى ﷺ بسببها : (لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود) ومع ذلك كله حكمت بأن صلاته غير صحيحة ، بل وغير مقبولة ، والدليل على ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – : (إن الله لا يقبل صلاة بلا طهور ، ولا صدقة من غلول)

فشرط صحة الصلاة الطهارة ، إما بالماء وهو أصل ، وإما بالتراب إن فقد الماء ، أو وجد ، واشتدت الحاجة إليه ، أو تعذر استعماله

وكذلك لو جدت مسلماً يصوم رجب كله ، أو شوال كله ، يظن بذلك أنه يغنيه ، أو بلغة الفقهاء يجزىء عن رمضان ، قل له : هذا من العبث بمكان ، فإن شهر الفريضة رمضان ، لا سواه ، فإن كنت من المعذورين فى رمضان لمرض أو سفر فعدة من أيام أخر ، أما أن يقول : شهر فى نظير شهر ،

و(كله ماشى) فهذا من التخبط فى الضلالة والعمى ، لا من السير على صراط مستقيم ، وكذلك لو رأيت أحداً يقف فى عرفة ركن الحج الأكبر فى غير التاسع من ذى الحجة ، ويقول : أنا أحج ، فقل له : وفر على نفسك الجهد والمشقة ، فإن وراء ذلك الصفر لا الأجر

فجميع العبادات التى شرعها الله ﷻ لنا لابد لصحتها من شروط صحة ، والدعاء عبادة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ غافر: ٦٠ ، بعد قوله ﷻ : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ) فدل ذلك - كما قال العلماء - على أن الدعاء عبادة ، وبما أن الدعاء عبادة ، ولكل عبادة شروط صحة ، فلابد للدعاء من فقه يعلمه الداعى ، قال النبى ﷺ لمن رفعوا أصواتهم فيه : اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، نهاهم عن رفع الصوت بالدعاء ؛ لأنهم يدعون الله وحده ، والله ﷻ سميع، لا تختلط عليه الأصوات ، يعلم السر وأخفى ، وقد سأل الصحابة - رضوان الله عليهم - رسول الله ﷺ فقالوا : هل الله بعيد فنناديه ، أم قريب فنناجيه ، فأنزل الله ﷻ قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦

فمن شروط صحة الدعاء أن يكون بتضرع وخشوع ، قال الله ﷻ : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الأعراف: ٥٥

وقد قال العلماء : إن رفع الصوت فى الدعاء من الاعتداء ، فلماذا الإصرار على الدعاء فى مكبرات الصوت

- حتى يسمع من وراء الإمام ، فيقول : آمين
- ولماذا لا تستعمل مكبرات الداخلية التى تكفى لإسماع المصلين وراء الإمام
- ليسمع من ليسوا فى المسجد من الناس
- والذين ليسوا فى المسجد هل يتوقفون عن الحياة ، ويرفعوا أيديهم ، ويقولون : آمين ، أم يكفوا عن الكلام فى أمور الدنيا ، وهى من الدين حيث صلوا ودعوا الله فى السجود ، وانصرفوا إلى أعمالهم وهى من الدين أم ماذا يفعلون ؟

إن القضية لا ينتهى الحوار فيها إلى نتيجة إلا الاعتراف بأنها شهوة ، هوى لا مسوّغ له إلا الهوى ، وقنط ، فلا سند له ، ولا أصل له ، واتباع الهوى ضلال مبين ، أما اتباع الهدى ففوز فى الدارين

وقد رأيت من فقه الدعاء فى الإسلام أن يستند الدعاء على دعامة حتى لا يكون مرسلاً بلا توكيد ، منطلقاً دون شىء يسنده ، وسوف أعرض إن شاء الله ما يستند عليه الدعاء فى الإسلام فى سلسلة متتابعة عسى الله أن يبصرنا بالحق ، فنراه حقاً ، ويرزقنا اتباعه

(١) السبب مما يستند عليه الدعاء

لم تكن السفينة التى نجّى الله عليها نوحاً عليه السلام ومن آمن معه من السماء ، نزلت مع الماء ، فركب نوح والمؤمنون بالله معه فيها

وإنما كانت السفينة التى صنعها نوح بيده ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ هود: ٣٨ فلما اشتد الأذى ، وبولغ فيه ، وحان وقت العقاب ، ودعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتح أبواب السماء ، بماء منهمر ، وفجر الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحمله الله - تعالى - على سفينته .

فمن منا أعد لدعائه سفينة قبل أن يدعو ؟

إن الإسلام دعوة إلى الإبصار ، وعلاج العمى ، وهذا درس عظيم من دروس الإبصار فى فقه الدعاء

وفى صيحة يوم أحد عزّ على النبى ﷺ أن يرى بعض المشركين على قمة الجبل ، وقال : اللهم ما كان لهم أن يكونوا فوقنا

وسمع عمر بن الخطاب تلك المناجاة ، فاصطحب نفراً من الصحابة ، وصعدوا فوق الجبل ، فأنزلوهم

وهكذا نجد أن الدعاء لا بد له من دعامة يستند إليها وعليها ، حتى يكون دعاء على منهج الإسلام ، لا دعاء على سبيل التخبط

ومع ذلك لو أعدت قراءة الآيات من سورة القمر حيث يقول الله – تعالى – :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ القمر: ٩ – ١٤

وجدت عند إعادة تلاوتها أن نوحاً قد أعد سفينة فقط ، أما ربنا ﷻ فقد فتح السماء بماء منهمر ، وفجر الأرض عيوناً ؛ فالتقى الماء السماء ، وماء الأرض ، على أمر قدره الله ﷻ وهو ﷻ الذى حمله عليها ، وحفظه بعين رعايته ، حتى السفينة التى صنعها رسول الله نوح عليه السلام لم يصنعها من عدم ، وإنما صنعها بمكونات خلقها الله ﷻ فالفضل لله فى الأولى والآخرة ، فى البدء والختام ، لكن كان على نوح أن يصنع سفينة ، ولا شك فيما نعتقد ونؤمن به أن الله ﷻ قادر على أن ينجى عبده بلا سفينة، بلا سبب ؛ لأن أمره – تعالى – أن يقول لشيء أى شيء إذا أراده : كن فيكون ، لكن أراد لعباده أن يقدموا شيئاً ، تلك سنة الحياة كما أرادها من خلقها ﷻ

أن يأخذ النبى ﷺ بالسبب ، وأن يلجأ إلى غار ثور ، يبيت فيه ، وصاحبه الصديق ثلاثة أيام بلياليها كى يهدأ الطلب ، وما كان أسهل أن يلقى الله ﷻ على أعين الكفار غشاوة ، فلا يروا رسول الله وصاحبه ، فلا داعى إلى الغار ، ولا إلى الاختباء ، فكل شيء وعلى الله – تعالى – هيِّن ، قال الله ﷻ لزكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ مريم: ٩ ، وقال كذلك لمريم – عليها السلام – فما يعجز الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء

، كما كان هيناً أن ينقل النبى ﷺ وصاحبه ، والمؤمنون جميعاً إلى يثرب (المدينة) ما بين غمضة عين ، وانتباهها ، كما نقل رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله حيث لا زمن ولا مشقة ، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وما زاغ البصر وما طغى ، حيث لا زمن ، وأراه من الآيات ما يحتاج إلى فصول من الزمن ، تتجاوز أطول الأعمار ، وعاد ﷺ ولم يزل موضع جنبه دفيئاً ، كما قال السهيلى فى الروض الأنف ، لكن الإسراء والمعراج معجزة ، والمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله – تعالى – على يد رسوله ليصدقه الناس ، والمعجزة حالة ، والحياة شيء آخر ، ولا تقاس الحياة الدائمة على معجزة هى حالة

والنبى ﷺ ركب البراق فى رحلة الحالة ، وركب الناقة فى هجرة الحياة ، ولما كانت الحالة خارقة للعادة كانت المطية من جنسها خارقة للعادة ، ولما كانت الحياة على وتيرة دائمة معروفة كانت المطية من جنسها كذلك ناقة معروفة ، فغير مألوف يكون فى رحلة غير مألوفة ، ومألوف يكون فى رحلة مألوفة ، ذلكم هو المنهج ، وعليه فعلى طالب العلم الذى يدعو الله بالنجاح أن يتخذ لدعائه سبباً هو العكوف على كتابه ، ومجرد العكوف على الكتاب لا يضمن له النجاح ، فالذى يثبت المعلومة فى رأسه هو الله ﷻ وإن شاء ذهب بكل ما عنده ، فعمى عليه كل شيء ألا ترى إلى قوله ﷻ فى آية الإسراء :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ الإسراء: ٨٦

ثم يقول الله ﷻ : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ الإسراء: ٨٧ ، أى لكن عدم الذهاب به من رحمة الله وفضله ، وكما صنع نوح السفينة وصنع الله – تعالى – أشياء كذلك قرأ الطالب ، وثبت الله وحفظ ، وألهم التوفيق ،

فكان الجواب الصحيح فى الامتحان ، فمخطىء من زعم أنه باستذكاره فقط نال أعلى الدرجات ، ومصيب من قال : هدانى الله فقرأت ، وكان فضله علىّ إذْ حفظ لى ما قرأت وهدانى إلى الجواب الصحيح ، فحصلت على ما حصلت عليه من أعلى الدرجات

(٢) اتهام النفس مما يستند الدعاء

من قديم قال الناس الحكماء : (من أدى للعمى حقه صارت عيون الناس عيونه ، ومن ادعى الإبصار وهى أعمى ترك الناس ، فإن زلت به قدماه فلا يلومن إلا نفسه)

ومما يستند عليه الدعاء فى الإسلام أن يتهم الداعى نفسه بالتقصير ، وليس ذلك من باب التواضع بين السوء ، وإنما هو من باب الإقرار اللازم ، والحق الواجب أداؤه ، عسى الله أن يجعل ذلك توبة ، يكون من آثارها الطيبة على صاحبها أن يجيب الله دعاءه

والدليل على أن اتهام النفس سبيل إلى إجابة الدعاء قول الله ﷻ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ القصص: ١٦

فما دام الله ﷻ قد قال : (فَغَفَرَ لَهُ ۚ) فدل ذلك على أنه قد أجاب دعاءه إذْ دعا (اغفر لى) وما دام موسى عليه السلام قد دعا وهو متهم نفسه بالظلم فقد دل هذا على أن اتهام النفس بالظلم حال الدعاء مما يستند عليه الدعاء المستجاب .

فاتهام المرء نفسه بالظلم كاعتراف الأعمى بعماه ، يقول بلسان مقاله ، أو بلسان حاله : أيها الناس إننى أعمى ، لا أرى ، فلتأخذوا بيدى ، وعندئذ يأخذ أحد منهم بيده ، إن لم يسارع إليه أكثر من واحد

والكثير من الناس عند الدعاء يصدر أقوالاً تحول دون إجابة دعائه ، كأن يقول : يا رب لم فعلت فى هذا ، وأنا الذى أصلي وأصوم ، وأحج ، وأعتمر ، وأقرأ

الآن كتابك كما قرأته بالأمس ، وأتصدق على عبادك ، كأنه يرى ما هو فيه من بأس من باب الظلم ، وفى ذلك خطر عظيم عليه ، إذْ إننا نعتقد أن الله ﷻ ليس بظلام للعبيد ، وقد قال وقوله الحق :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ ﴾ هود: ١٠١

قال عز من قائل : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ١١٧

وقال تبارك اسمه : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ق: ٢٩

لقد ظلمنا أنفسنا حين اخترنا ما لا نختار ، وارتكبنا من الأعمال ما نهانا عنه ربنا ، ولم نعمل جواهر فينا منحنا الله إياها ، وهى العقول ، فأسلمنا أنفسنا للهوى ، والمخاطر ، فكان ما كان من النتائج المرعبة التى لا تسر عدواً ولا حبيباً ، فلما ابتلينا بها وهى من عند أنفسنا قلنا : أنّى (كيف) هذا !

يا رب نحن مؤمنون بك وموحدون ، ونحن راكعون ساجدون ، معتمرون حاجون ، لكتابك تالون ، وعلى عبادك منفقون ، ونحن دائماً بألسنتنا مستغفرون ، فكيف أصبتنا بهذا ، ثم قلنا بعد هذا الوابل من الكلم غير الطيب فى سياقه : (نحن راضون بما كتبت علينا)

وما كتب الله علينا سوءاً ، إنما كتبه بسابق علمه الذى لا يخطىء بناء على ما سيكون منا من سوء فكرنا ، وانحرافنا عن منهجه الرشيد ، وصراطه المستقيم ، فالذى كتبه الله – علينا لا يشقينا أبداً ، كالذى كتبه من ألواننا السود والبيض والحمر ، والأطوال والأعراض ، لا صلة لذلك وغيره بما نحن فيه من مآس ، بل رب أشعث أغبر لو أقسم على الله – تعالى – لأبره الله كما جاء فى حديث البخارى ، أى رب إنسان لا ترضى هيئته الناس لو أقسم على الله رب الناس لأبره الله ، فكان له ما أراد مما يرضيه كما قال أنس بن النضر للنبى ﷺ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ

لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتَهَا، يعنى أخته الربيع ، وقد كان قبل الناس ما أبوه قبل يمينه ، فقال ﷺ الحديث ، فأنت تجد المرء يقع فى صناعة لا يحسنها ، ويدخل فى عمل لا علم له به ، ينفق فيه جميع ماله ، فإذا خسر ، ولا بد له أن يخسر وفق سنة الحياة التى بينها لنا الدين ، ثم يلقى بالتبعية على قضاء الله وقدره ، ولا يلقى بها على نفسه التى ظلمها ، إذ أوقعها فى التهلكة ، وكان يرجو أن تكون الغياهب المظلمة أضواء المدينة التى لا تهدأ أضواؤها ولا تنام إلا بعد طلوع الشمس ، ولو أنه قال : يا رب ظلمت نفسى وكنت أنا السبب فى الكوارث التى أحاطت بى ؛ لفتح الله عليه وهداه إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبارك له فيه

وتجد الشاب يتزوج بمن لا تناسب ظروفه ، وأخلاقه ، وما جرت عليه عادات أسرته وبيئته ، ويصر على ذلك رغم نصح الناصحين ، ووعظ الواعظين ، وتوسل المقربين ، من والدة تعلم أن الفرق بينه وبين التى اختارها شاسع ، وأنه غداً سوف يندم ، لكنه يصر ، ويعلم أن جميع هؤلاء حاقدون ، وأن أحداً منهم لا يرجو له السعادة ، وبعد أن يتم الزواج ، ويذهب بريق الرغبة ، ويقضى منها وطره ، ويأتى ما حذره منه السابقون لا يقول : يا رب ، إنى ظلمت نفسى ، فاكشف عنى ما أنا فيه ، فإما أن يصلح الله له زوجه ، وإمّا أن يباعد بينهما .... وإما ، وإما ، لكنه لا يقول : رب إنى ظلمت نفسى .

ومثله تلك الشابة التى تصر على ارتباطها بثعلب ماكر ، أو كذاب ، أو عاطل ، وتقول لكل من ينصح لها :

(حياتى وأنا حرة فيها) و (أنا الذى سوف أعاشره) وبعد أن يتم الزواج ، وتقع الواقعة تقول : (حظى سىء) والله يعاقبنى ، ويا ليتها تقول : رب إنى ظلمت نفسى ، حتى يكشف الله عنها السوء

(٣) الرصيد

مَنْ شك يوماً وهو على انتظار أن يصرف شيكاً أو يسحب مبلغاً ، والشيك له رصيد فى هذا البنك ، والمبلغ المسحوب يكفى ماله من رصيد أن يسحب مثله ، أو ضعفه

ومن شك يوماً أنه لن يجلس على مقعد محترم ، كان قد حجزه منذ أسبوعين قبل سفره إن وجد له مقعداً بالقطار ساعة الحجز ، إنه يأتى إلى مقعده المحجوز مطمئناً حتى لو وجد شخصاً يجلس عليه ، مما أن يراه القاعد واقفاً فى ثبات ، أو يسمع صوته ، وهو يقول له : لو سمحت حتى يهب معتذراً ، تاركاً له مقعده الذى حجزه ، كل ذلك ، وغيره من الآيات الناطقة المبصرة التى يؤمن الناس جميعاً بها ، إلا مَنْ ساق الهبل على الشيطنة ، وزعم أن كل شىء بالفتاكة يمشى ، وبالحظ يمضى ، وأن الدنيا أى كلام فى أى كلام ، وهؤلاء لا يعبأ بهم ، ولا وزن لهم عندما يجد الجد ، وهؤلاء إن وجدوا عند الناس مسالك فلن يجدوا عند الله ﷻ مسلكاً .

وهكذا الدعاء فى الدين يستند فيما يستند عليه على رصيد عند الله ﷻ قبل أن يصعد إليه ، والدليل على ذلك قول الله – ربنا – فى سورة الأنبياء فى قصة زكريا عليه السلام : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٠

فقوله ﷻ : (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ) إعلان بالإجابة ، وقوله جل شأنه : (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ) بيان للرصيد المدخر عند الله ﷻ فقد صرف الشيك (الدعاء) لوجود الرصيد ، فمن أراد أن يجيب الله دعاءه عند الشدة فليقدم لنفسه رصيداً من الخيرات ، وعمل الصالحات عند ربه ﷻ ؛ فإنه لا يضيع أرصدة

عباده ؛ بل ينميها ، قال ربنا – تعالى – : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ الروم: ٣٩ ،

وفى صحيح البخارى ، : (إن الله يأخذ صدقة أحدكم فينميها له كما يربى أحدكم فلوه)، فانظر إلى دابة عندك وليدة ، كيف تربيها حتى تكبر ، ويصبح ثمنها عند كبرها أضعاف ما كانت تستحق عند صغرها قبل أن تربو وتكبر ، وتعظم ، هكذا هذا الجنيه الذى أعطيته يتيماً بائساً أفطر به يوماً ، أو تعشى ، ينميه الله لك ، واحذر أن تنمية الله تحتاج إلى زمن كما يحتاج صغير دوابك إلى زمن طويل ، فالله ﷻ الكريم ، ينميه لك إثر إخراجه ، ويزداد نمواً من فضل الله ، لا بمرور الزمن ، حتى يأتى يوم القيامة وقد صار مثل جبل أحد ، كما روى البخارى كذلك ، فأنت قد تعطى الفقير فى الصباح ، وتمر بك الأزمة فى ضحاه ، أى بعد ساعة أو أقل ، فلا تظن بأن الجنيه ما زال جنيها عند الله ، ولن يكفى لجواب دعائك فى شدة عظيمة ، إن الله ﷻ هو الكريم ، ولئن دعوته بعد لحظة بعيد الجنيه لأجابك ، ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هود: ١٧

فهل يمكن استثمار ذلك فى تربية الأجيال ، والبراعم الصغيرة !

بمعنى أن نربى هؤلاء منذ نعومة أظفارهم على أن يكون لهم عند الله ﷻ رصيد ، فنعلمهم أن الأعمال الصالحة ، ومنها رفع الأذى عن الطريق الذى كانوا هم الأذى فيه ، وضعوا فيه الحجارة ، وحولوه إلى ملاعب كرة قدم ، وصاحوا فيه ، وهاجوا ، وهيجوا على المريض مرضه ، وأفسدوا على العابد عبادته وتلاوته ، ونغصوا على النائم نومه ، وكانوا هم وحجارتهم أحجار عثرة أمام المارة من الناس .

هلّا ربيناهم على أن للطريق حقه ، وأن رفع الصوت فيه فاحشة ، بإجماع العلماء ، والله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن عليهم أن يذهبوا إلى

مراكز الشباب للعب إن لم يكونوا من أهل الأندية الرفيعة ، ابتغاء مرضاة الله ﷻ ، وأن يجتهدوا فى أداء الصلوات ، فإن الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام ، ومن هدمها فقد هدمه ، وأن الاعتدال فى الإنفاق من الدين ، وأن الكلمة الطيبة صدقة ، وأن القعود أمام اللب توب من غير داع ، أو إضاعة الوقت الطويل فيه من العبث ، والله – تعالى – نهانا عن إضاعة الوقت فى العبث ، وتقول لهم : إنّ ذلك يكون رصيداً لهم عند الله ، يبدو أثره فى إجابة الدعاء عند الشدة ، والشدة قادمة لا محالة ؛ لأن الحياة لا تدوم على حالة واحدة ، وأنهم إذا فعلوا الصالحات ، وكان لهم بها رصيد عند الله كانوا بمثابة من يذهب مطمئناً إلى البنك ليصرف شيكاً ، أو ليسحب مبلغاً ، وله فيه رصيد يكفيه ، وإذا كنا نطمئن إلى ما عند البنك ، والناس فلنكن إلى ما عند الله ﷻ أكثر اطمئناناً

مما يستند عليه الدعاء فى الإسلام

• الدعاء بلفظ الجماعة

مما يستند عليه الدعاء فى الإسلام أن يكون بلفظ الجماعة ، والدليل على ذلك وروده هكذا فى الأعم الأغلب من كتاب الله ﷻ ، مثل : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٨٦

وهكذا تجد الدعاء فى عموم الكتاب الكريم ، إما بلفظ الجماعة ، وإما بالعطف الذى يفيد الجماعة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ ﴾ إبراهيم: ٤٠

وقولـه ﷻ : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ نوح: ٢٨

وقد شاع فى زماننا الدعاء بلفظ المفرد ، مثل أن يقـول الـداعى : اللهـم اغفـر لى ، وارزقنى ، وعافنى ، واعف عنى ، وأصلح حالى ، ووفق أولادى ، ارزق فلاناً - من أولاده - عملاً ، وفلانة - من أولاده - زوجاً صالحاً ، فهل يعنى ذلك أنـه لا يعنيـه أن يعذب الله - تعالى - جاره ، أو أخاه ، أو زميله ، أم أنه يحب أن يكـرم الله النـاس جميعاً ، وإن قلت له : هل تحب أن يهلك الله الناس جميعاً ، ويرحمـك أنـت وحـدك ، قال لك : أعوذ بالله ، لا والله ، فقل له : عليك إذاً أن تدعو بلفظ الجماعـة ، واحـذر أن يظن أن ما عند الله - تعالى - لا يكفى الناس ، ويكفيك معاً ، فهذا الظن مهلك ، فالله ﷻ واسع ، وأنت بلا شك محلّف يعتقدون أن الله - جل شأنه - لو أعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً

صحيح أنك ربما قصدت غنياً من الأغنياء ، كـريماً ، وكنـت عـلى طمـع فى أن يعطيك الذى أنت سائله ، فتخشى أن تطلب لغيرك ، فيـضيق صـدر الرجـل بـل ، ويترتب على ذلك أنه لن يعطيك سـؤالك ، ولا مـا سـألت لغـيرك ، وقـد تـرى أن الحقوق كثيرة على الرجل ، وآخرها الضريبة العقارية ، فأنت ترفق به برغم عملـك بغناه ، وما هكذا الحال مع الله ، فالله واسع

ثـم إن الله ﷻ قـد أرشـدنا إلى ذلـك ، والأخـذ بإرشـاده ﷻ إبـصار ، والرغبة عنه عمى

والحق أنك إذا وقفت ملياً عند هذه الفكرة استشعرت صـلتها بواقـع الـدين ، ومن ذلك

- أن الدين دين الجماعة ، وفى الجماعة خير عظيم ، فالإنسان قليـل بنفـسه ، كثـير لإخوانه ، وصلاة الجماعة تفضل عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة

- وأنك مأمور بأن تحب لغيرك ما تحب لنفسك من خيرى الدنيا والآخـرة ، ففـى الصحيح يقول النبى ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفـسه) والأخوة فى الدين ثابتة بالكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات: ١٠

وقال ﷺ : (المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه)

فليكن من أدلة إقرارك بأخيك أن تدعو لك وله ، فقل : اللهم ارزقنا ... اللهم اغفر لنا ، اللهم ارحمنا .... وهكذا

- وأن هذا الدعاء الذى بلفظ الجماعة يحرك قلبك نحو إخوانك ، فإذا بك ترحمهم ، وتعطف عليهم ، وتواسيهم ، وتعينهم فى النائبات

فليس من العقل أن تدعو لهم بالرحمة معك ، وأنت قاس عليهم ، ولا أن تقول : اللهم ارزقنا أجمعين ، وعندك مال ، وفى حياتك مـن هـو فى حاجـة إليـه ، وأنـت بخيل عليه

وكانت هذه الفكرة فى ذهن عثرة رسول الله على زين العابدين ﷺ كان يتصدق على الفقراء ، والإخوان ، ويقول : أخشى إن قلت لهم يرحمكم الله ، أن يقول الله لى : لـو كانت الجنة فى يدك لمنعتها إخوانك ، كما منعتهم مالك ، فهذا مالى لإخـوانى ، كـى أكون صادقاً إذا دعوت لهم بالمغفرة ، فالدعاء بلفظ الجماعة سـبيل إلى إدراك معنـى الرحمة فيما بيننا .

لكن كثيراً من الناس يقول لك إذا رأى بؤسك ، وحاجتك : (ربنـا معـك) ، (الله معك) ، (ربنا يفرجها عليك)

شكراً على الدعاء ، والشكر أوجب مع العطاء ، فإن رجلاً سأل ابن عباس - رضى الله عنهما - سؤالاً ، ما زلنا نردده - مع الأسف - قال له : ادع الله لى أن يغنينى عن الناس ؛ فقال ابن عباس وقد ضحك : إن الله خلـق النـاس يحتـاج بعـضهم إلى

بعض كما تحتاج أعضاء الجسد بعضها إلى بعض ، ولكن أدعو الله لك أن يغنيك ويكفيك شر الناس ، وشر الناس من يرجون الخير لأنفسهم ، وينسون أن لهم إخواناً يحبون الخير الذى أحبوا

• التباس الدعاء بالعمل

دعا إبراهيم وولده إسماعيل – عليهما السلام – الله ﷻ : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ) وهما يرفعان القواعد من البيت ، قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ البقرة: ١٢٧

فكان ذلك دليلاً على أن الدعاء ملتبس بالعمل ، أى مخالط له ، فالدعاء الذى يصاحب العمل دعاء مستند على أهم دعائمه وأركانه ، وهو أقرب ما يكون إلى القبول لا إلى الرد ، وإلى الرفع لا إلى الخفض ، وإلى السماء لا إلى الأرض ، والمسلم فى صلاته يدعو فى سجوده بما يفتح الله به عليه ؛ لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، والسجود عمل ، فهو وسيلة للدعاء ، حال شريفة ، كما ذكر الغزالى فى إحياء علوم الدين نقلاً عن أبى هريرة ﷺ أن الدعاء يكون أقرب إلى القبول فى الأوقات الشريفة .

والأوقات ظروف زمان ، والزمان يشرف بما يكون فيه من عمل ، فهل شرفنا أوقاتنا ، وأعمارنا بأعمال جليلة يستند عليها دعاءنا ، أم ملئت أوقاتنا بما لا شرف فيه من لهو ، ولعب وعبث ، وفساد ، وظلم ، وظننا أن الدعاء فى ذلك مستجاب ؛ لأنه وقت السحر مثلاً ، والسحر جزء أخير من الليل ، وسحر الناس يختلف باختلاف أحوال الناس فيه ، فمن قام ليصلي ، ويراجع نفسه وينتظر الفجر ، يصليه قبل أن تطلع الشمس كان سحره سحراً ، يجاب فيه الدعاء ، ومن جاء عليه السحر وهو يرتكب المعاصى ، ويفعل الآثام كان سحره شراً لا سحراً،

فكيف يظن أن دعاءه فيه مستجاب ، وكذلك يوم عرفة ، من دعا الله فيه وهو فى الموقف حاجا بمال حلال ، قيل له : حجك مبرور ، وسعيك مشكور ، وذنبك مغفور صادف وقتاً شريفاً هو له أهل .

وكذلك من صام يوم عرفة وهو غير حاج ، يتطلع إلى مغفرة ربه ، ويرجو ثوابه ، وقد أعد للغد أضحيته يذبحها بعد الصلاة ، صلاة العيد حتى وإن فاتته تلك الصلاة

وكذلك من لم يصم ؛ لأنه غير قادر على الصيام ، لكنه يعمل الصالحات فيه ، وفى غيره ، يرجو الخير لإخوانه الذين هم فى الحج أن يتقبل الله منهم حجهم ، وأن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يرجعهم إلى أوطانهم وأهليهم سالمين غانمين ، ويرجو الله للصائمين أن يتقبل الله منهم صيامهم ، وأن يثيبهم عليه خيراً ، إن عرفة بالنسبة إلى هؤلاء وقت شريف ، والدعاء فيه دعاء أقرب إلى الصعود إلى رب الأرض والسماوات لا إلى الهبوط فى غياهب الأرض ومتاهاتها

وقس على ذلك كل وقت شريف ، استمد شرفه مما فيه من عبادة مشروعة لا مبتدعة ، إن صادفه العبد على تقوى ، ودعا فيه فقد استند دعاؤه على دعامة قوية ، وإن ضيع العبد ما فى الوقت من عبادة ، واستهان بها ، وفرّط ، واستخف ، فلم يعظم شعائر الله ، وتعظيمها من تقوى القلوب .

ومن ذلك يوم الجمعة ، أفضل أيام الله – تعالى – ألا ترى أن الله ﷻ قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ الجمعة: ٩ ، ١٠

فإذا رأيت العبد قد سمع النداء ، ولم يجبه ، أو نام حتى لا يسمعه ، فأى شرف له فى يوم الجمعة ،

وإذا رأيته قد صلى الجمعة ، ولكنه لم ينتشر فى الأرض ليبتغى من فضل الله ، فلم يجب داعى عمل يناديه ، ولم يصل رحمه فيه ، ولم يزر مريضاً ، ولم يواس محتاجاً ، ولم يسأل عن غائب ، ولم يصلح أمراً من الأمور ، فأى شرف له فيه إن لم يكن عنده ما يكفيه ذلك ، من عامل يقوم بعمله ، ومرسل بالخيرات منه إلى من يحتاج إليه ، وظل فى مصلاه يدعو الله ، ويستغفر حتى صلى العصر ، فلا بأس .

أما أن نفهم أن وقت السحر هو وقت فتح أبواب السماء للدعاء ، بحيث يقوم العبد يدعو دعوة بين المنام واليقظة ، ثم يواصل نومه حتى يقوم بعد الظهر ليصلي الصبح قضاء ، ويدرك الظهر قبل أن يؤذن للعصر ، ويذبح يوم عرفة ؛ لأن الجزارين مشغولون يوم العيد ، وغير ذلك مما يضيع به معنى الأوقات الشريفة فهذا ليس من الإبصار ، ولا من هدى الدين بحال ، وكذلك من يدعو الله – تعالى – غير عامل كالذى يدعو الله أن يرزق ابنته زوجاً صالحاً والناس لا يعلمون أن له بنتاً ، وكالذى يدعو الله أن يرزقه وهو يعرف طريق السوق التى سأل عبد الرحمن بن عوف أخاه سعد بن الربيع أن يدله عليها ، ثم لا يذهب إلى السوق ، وما أكثر الأسواق ، ولكن ما أقل البضائع ، وما أقل الخطا التى يجب أن تتحرك إليها مع الدعاء

أفضل الصيغ فى الدعاء

لا شك أن الدعاء بأية لغة ، ولو بغير العربية جائز ، وأن يدعو المسلم ربه بالعامية ، أو بأية لهجة ، وبما فاض به خاطره ، دون تكلف سجعه ، ولا حبّك عبارة ، ولا قراءة من كتاب ، خلاف الطواف وغيره جائز جائز ، وربما كان هذا اليسر فى الدعاء مستنداً لصاحبه ، يسنده عليه ، دون تكلف ، فقد جاء فى الذكر الحكيم فى آية ص : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ص: ٨٦

وقد كان سلمان الفارسى ﷺ يقدم لضيفه ما حضر عنده ، ويقول له : نهانا رسول الله ﷺ عن التكلف ، فكل شىء يشهد لهذا الدين العظيم بالتبسط ، وعدم التكلف ، وباب التيسير فى الدين باب واسع كبير ، والبدائل فيه شاهدة بذلك ، فالصائم يفطر على رطب ، فإن لم يجد فعلى تمرة ، فإن لم يجد فعلى لبن ، فإن لم يجد فعلى الماء ، وحين قال النبى ﷺ : على كل مسلم صدقة ، سأله الصحابة :

- فإن لم يجد ما يتصدق به !
- قال : يعمل ، فيكسب ، ويتصدق
- قالوا : فإن لم يجد ؟
- قال : يصنع لأخرق
- قالوا : فإن لم يجد ؟

حتى قال : الكلمة الطيبة صدقة

- فقيل : فإن لم يجد ؟
- قال : يمسك عن الشر

فأى يسر بعد هذا !

والدعاء كذلك ، بما يفيض به الخاطر ، وبأى لغة ، فإذا أردت الأفضل وكنت قادراً عليه ، فذلك مستند عظيم ؛ لأن الدين يدعو دائماً إلى الأفضل ، فإن لم يستطع المسلم الوصول إليه كان ما هو فيه الأفضل بالنسبة إليه ، والله ﷻ لا ينقصه أجره ، ومن أمثلة ذلك الدالة عليه أن أفضل الأضاحى ، الإبل ، أو البقر على خلاف ، فمن ذبح جملاً فقد ذبح الأفضل ، ومن ذبح بقرة أو ثوراً فقد ذبح الأفضل ، فمن لم يستطع أو يجد ، وذبح شاة أو تيساً أجزأه ذلك ، وكان من المضحين

وأفضل الدعاء ما جاء فى الذكر الحكيم ، يليه ما جاء على لسانه ﷺ ، وهذا مستند عظيم ، يدلك عليه أنه لا يستوى أن تقدم طلباً إلى جهة على ورقة بيضاء من

عندك ، وأن تقدم هذا الطلب على النموذج الذى أعدته تلك الجهة ، إن نموذجها أقرب من غيره إليها ، وهو كذلك أسهل ؛ لأنك فى الغالب تقوم بملء بيانات ، وقد كفيت الصيغة والأسلوب ، والدليل الشرعى أن كلام الله ﷻ خير كلام ، وقد قال العلماء : إن فضل كلام الله على كلام البشر كفضل الله ﷻ على سائر البشر ؛ فانظر كيف يكون التفضيل ، وانظر إلى نتيجته

وكذلك ما رواه ابن كثير فى تفسير سورة الطور ، حيث روى أن أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – قرأت قول الله ﷻ من سورة الطور : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الطور: ٢٧ ، ٢٨

فقالت – رضى الله عنها – : (اللهم من علينا وقنا عذاب السموم ، إنك أنت البر الرحيم)

فالقرآن الكريم يحكى لنا طرفاً من نعيم أهل الجنة الذين رزقهم الله – تعالى – لحماً مما يشتهون ، وفاكهة ، وحوراً ، وكان من قولهم : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الطور: ٢٦ – ٢٨

قالت عائشة – رضى الله عنها – : (اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم) ، وقد روى البخارى عنها – رضى الله عنها – أنها سألت رسول الله ﷺ عن دعاء تقوله إن صادفت ليلة القدر ؛ فقال لها قولى : (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى)

وقد روت كذلك عن أبيها الصديق – رضى الله عنها – أنه سأل رسول الله ﷺ دعاء يقوله فى صلاته فعلمه أن يقول : (اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم)

فلماذا سأل الصديق وابنته وغيرهما رسول الله ﷺ دعاء وهم أهل فصاحة وبلاغة ؟

لاشك أن هؤلاء سألوا الأمثل والأفضل ليكون مستنداً لفظياً عالياً ، فيعلوا إلى ذى الجلال ﷻ ، وهو القائل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ فاطر: ١٠

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ آل عمران: ٨

الصلاح مما يستند عليه الدعاء

من أهم معالم الإسلام التى تحتاج إلى إزالة الغبار عنها ؛ لتبدو على حقيقتها ، وتتضح للناس خصوصاً الناشئة الذين لا وقت عندهم للبحث والتنقيب والتحرى والتحقيق ، من أهم تلك المعالم : (معنى الصلاح) فقد درج الناس على أن الرجل الصالح هو الذى تربطه بالعبادات خصوصاً صلاة الفجر حبال ، فهو معلق بالمساجد ، يجلس دائماً فى الصف الأول لبكوره ، أو فى الصف الأخير لتواضعه ، شارد الذهن ، مسافر فى طيف أحزانه ، وهذا جزء من بيت لى فى قصيدة هو بتمامه

إنى على سفر لا تتبعى أثرى
فإننى راحل فى طيف أحزانى

وأحزان هذا الرجل وقف على أهوال الآخرة ، والخوف من الله ﷻ وما دام لا يفكر فى السياسة ، ولا فى الاقتصاد ، ولا فى أمور الدنيا فهو رجل صالح ، والمرأة الصالحة كذلك هى مَنْ تغطى رأسها ، أو تضم الوجه إلى الرأس ، فتتنقب ، وإن كانت فى بيتها لا تحسن سلق البيض ، ولا طبخ طبق ميكرونة ؛ وهى تزداد صلاحاً كلما كان

بينها وبين العلم مبعدة ، فالتى خرجت من الإعدادية أكثر صلاحاً من التى خرجت من الثانوية ، أما التى تخرجت فى الجامعة فهى إن كانت صالحة فذلك من العملة النادرة والشاذة ؛ لأن الجامعة عند بعض الناس ليست صرحاً علمياً لتكوين عقل قادر على التفكير ، والنهوض بمستوى الأمة ، وإنما هى مكان لممارسة الغزل ، وتكوين قصص الغرام

والصلاح الذى عرفه الإسلام ، وعلى المسلمين أن يعرفوه استقامة حال المسلمين على منهج الدين ، فطلب العلم وتعليمه ، وإعمال العقل وجنى ثماره ، والعمل وإتقانه ، ومكارم الأخلاق التى تعد ظرف الأعمال كلها من الصلاح ، بل هى الصلاح المنشود ، وهو مما يستند عليه الدعاء ، وقد جاء رجل يشكو تطويل معاذ بن جبل فى الصلاة بين يدى رسول الله ﷺ وأنه قد ترك الجماعة وراءه لما افتتح بعد الفاتحة بسورة البقرة ، وصلى منفرداً صلاة خفيفة ، الحديث الذى رواه البخارى ، والذى قال فيه النبى ﷺ لمعاذ ﷺ : أفتّان أنت يا معاذ ؟

وقد جاء فيه أن النبى ﷺ سأل الرجل عما يحسن من التلاوة ، فقال له : إنى لا أحسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ ، ولكنى أسأل الله الجنة ، فقال ﷺ : وحولها ندندن ، أى كلنا يسأل الله الجنة ، والسبب الذى من أجله ترك هذا الرجل معاذاً أنه كان يعمل ، ويزرع أرضه ، وهو فى حاجة إلى النوم مبكراً ، ليستعيد نشاطه ، ويجدد قوته من أجل هذا العمل ، وجاء رجل آخر ، وقال للنبى ﷺ : إنه يتخلف عن صلاة الفجر بسبب تطويل الإمام الذى يصلي بهم ؛ فغضب الرسول ﷺ غضباً شديداً ، وقال : إن منكم لمنفرين ، وفى روايات كلها صحيحة قال ﷺ : مَنْ أم بالناس فيخفف ، فإن منهم المريض والضعيف ، والمسافر ، وذا الحاجة ، وما عسى أن يكون ذو الحاجة إلا راغباً فى أداء مصلحة ، ومادة المصلحة هى مادة الصلاح ، والصلح (ص ل ح)

وفى آية القصص ، ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ القصص: ٢٧

المعنى الذى يفيد أن الصالح هو الذى لا يشق على الناس ، ومنهم عامله ، وموظفه الذى تحت قيادته ، وولده وابنته اللذين تحت رعايته ، وفى صحيح مسلم يقول النبى ﷺ : إن الله يعذب من يعذب الناس ، فالذى يعذب الناس يعذبه الله ، والله لا يعذب الصالح ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، فالرحمة من صفات الصالحين ، والذى يأكل المال الحلال صالح ، وهيهات أن يكون من يأكل المال الحرام صالحاً ، والصالح إن أصلح بين الناس ، وأحب أن تدوم بينهم عشرة طيبة ، كان من الذين قال الله فيهم : ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ النساء: ١١٤

وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة ﷺ قول النبى ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)

قول ذلك على أنّ صلاح الولد شرط لانتفاع والده بدعائه ، ومعنى ذلك أنه لو ترك ولداً غير صالح ، فدعا له هذا الولد ؛ فإن دعاءه لا ينفع والده ، ومعنى ذلك أن دعاءه غير مستجاب ، ولو كان دعاؤه مستجابا لانتفع به والده بلا شك

فكيف يكون الولد صالحاً ؟ أيكون صالحاً بمعنى أن يقوم على أداء العبادات على أكمل وجه ، وهو عاطل بلا عمل ، يعيش عالة على غيره ، أم يكون صلاحه فى بعده عن قضايا مجتمعه ، وعدم مشاركته فيها ، وإسقاطه الدنيا من حساباته ، فهو يعيش على هامش الحياة ، لا يقترب من معتركها ، ويدلى بدلوه فى الدلاء ، ويبذل طاقته فى إصلاح ما يمكن إصلاحه قدر المستطاع ، إن الولد الصالح ، والوالد

الصالح ، والمرأة الصالحة أولئك الذين يعيشون الحياة على وجهها الصحيح ، بمعنى أنهم فى العبادات صائمون ، وراكعون ، ومعتمرون ، وفى المعاملات أمناء ، لا غشاشون ولا خائنون ، محسنون لا مسيئون ، متقدمون لا متأخرون

ونحن على مبعدة بعيدة عن أهم جوانب الصلاح فى الحياة ، وأعنى به العلم والتقدم ، الأمر الذى أبصر عند غيرنا ، وعمِّى علينا ، فلماذا عمّى علينا ، وليس بيننا وبينه غيوم من الطبيعة التى هى هى ذات الطبيعة التى بحث فيها غيرنا ، فأبصروا واخترعوا ، ووقفنا نحن عند شواطئها ننشد الأشعار ، ونشكو الهموم ، بينما اعتكفوا هم على ذراتها ، وما تتضمنه من كنوز علمية صرنا لها مستوردين ، ومستهلكين ، صالح ذلك الرجل الذى اكتشف الخير للبشرية ، وحسابه على الله ، وناقص فى الصلاح من اكتشف مكانا هادئاً لينام فيه ، لا ليكتشف ويخترع

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

أقوى ما يستند عليه الدعاء أن يكون الداعى تقيّا ، والدليل على ذلك أن الحق ﷻ قد صرّح بقبول دعاء المتقين ، فمن استند دعاؤه على تقواه كان دعاؤه مستجاباً قطعاً بلا شك ؛ لذلك كانت التقوى أقوى ما يستند عليه الدعاء فى الإسلام

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ بأن التقوى محلها القلب ، وقد أشار ﷺ إلى قلبه ، وقال : التقوى ههنا ، وقد رأيت كثيراً من الناس عند ذكر هذا الحديث ينفعل انفعالاً شديداً وهو ينطق بنص الحديث ، ويضرب صدره بيده ، وهو يقول : (ههنا ... ههنا التقوى يا جماعة !) ههنا .. ههنا ... فين ! .... ههنا ، وكأنه يوجه بذلك رسالة إلى أحد من الناس اتهمه بأنه غير تقى ، كالخطيب الذى يذكر ما كان فى غزوة ذات الرقاع ، حين أراد رجل من بنى محارب أن يغتال رسول

الله ﷺ فأمسك بسيفه ، وكان كما جاء فى بعض الروايات معلقاً بشجرة نام رسول الله ﷺ تحتها ، فلما أمسك السيف أيقظه ، وقال له : من يمنعك الآن منى

فقال ﷺ : الله ، فسقط السيف من يد الرجل ، ينطق الخطيب بلفظ الجلالة (الله) وهو يصرخ ، وكأنه يمثل هيئة النبى ﷺ فى نطقه ، وهو بذلك يثبت أن السيف قد سقط من يد الرجل عن طريق الفزع (الخضة) وليس كذلك ، إنما قال النبى ﷺ : (الله) بكل هدوء وثبات ، ويقين ، ولم يصرخ فى وجه الرجل ، بل لم يصرخ فى وجه أحد والخطيب هو الذى صرخ ليثير بذلك عواطف الناس ، فإذا بهم يقولون : الله أكبر ... الله أكبر .... ، ويتحول المسجد إلى حالة حماسة بعد سكينة وخشوع

وإذا كان القلب مستراح التقوى ووطنها فإن القلب لا يراه إلا من خلقه ، فلا أحد يكشف عما فى قلبه من تقوى حتى يراها الناس ، وإنما يريهم ذلك بآثارها ، فهو الذى وقف فى إشارة المرور الحمراء دون أن يكون عندها عسكرى ؛ لأن العسكرى فى قلبه لا فى عينيه ، فى قلبه حرصاً والتزاماً بالضابط الذى يحقق الأمن والسلامة .

وهو يدفع ما عليه من دين دون أن تكون هناك ورقة ، تثبت هذا الدين ، ولا شيك ، ولا كمبيالة ، ولا وصل أمانة ؛ لأنه يستقر فى قلبه قول الله – تعالى – :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ البقرة: ٢٨٣

وتأمل قوله – تعالى – : (وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ) فى هذا السياق ، سياق الائتمان ، حيث ائتمنك إنسان ، ولم يأخذ عليك من ضوابط الحيطة ، ما أمر به الله على سبيل الندب ، الذى لا بأس أن يرقى إلى الواجب بعد خراب الذمة ،

فما الذى جعله يسلم ما عليه فى كمال عند موعده ، وهو الذى غير مدين قانوناً ، ليس مع دائنه ما يثبت أن له حقا عليه ؟

إنه ضميره الحى ، أى تقواه لله ﷻ

وأنت إذا جربت مثلى أحياناً الوضوء فى أماكنه الملحقة بالمساجد ، قد تكون رأيت ما رأيته من المصلين الذين تركوا صنابير المياه مفتوحة بعد أن فرغوا من الوضوء ، أو تركوا صنابير غيرهم التى تركوها دون إحكام غلق ، وكان بوسعهم أن يغلقوها ، وإغلاقها من التقوى ، فانظر كيف غاب معنى التقوى فى مكان الواجب أن يكون المسلم فيه أقرب للتقوى من غيره من الأماكن

ناهيك بمن يدخل الحمامات الملحقة بالمساجد ثم يتركها تشمئز منها النفوس بعده ، ومن اليسير عليه أن ينظف مكانه قبل خروجه منها ؛ لأن غيره سوف يدخل بعده ، لكنه اكتفى بقضاء حاجته ، وخرج لا يلوى على شىء ، وليس هذا من التقوى ، ولا من أوامر القلوب التى هى محلها

لقد روى الذهبى فى سير الأعلام النبلاء : أن عبد الله بن المبارك – رحمه الله – كان أحد الناس يلقنه (لا إله إلا الله) وهو يحتضر ، وكان يرددها وراءه ، فيغمى عليه، فيتقلب ، فيقول الرجل له : لا إله إلا الله ، فقال له عبد الله بن المبارك : أخاف أن تعذب الناس بعدى ، يا هذا إذا لقنتنى لا إله إلا الله ، ولم أتكلم بعدها فدعنى فهى آخر كلامى ، أما إذا تكلمت بعدها فلقنى حتى تكون آخر كلامى من الدنيا .

فهذا رجل يخاف أن يتعذب الناس بعده بلا إله إلا الله ، يلقنهم إياها من لا علم عنده ، فما بالنا بمن يعذب الناس برائحته الخبيثة ، وسوء سلوكه ، وإسرافه فى الماء الذى هو سر الحياة ، ومنهم من يلعنهم ، ويلعن المكان الذى يقفون فيه ، والمصلحة التى جاءوا من أجل قضائها بعد انقضاء مصلحته ، ما عرف هؤلاء التقوى ، وإن صلوا وصاموا ، وضربوا لنا صدورهم قائلين : التقوى ههنا ، قل لهم : ليست هنا ، وإنما هناك

من يجب المضطر إذا دعاه

فى سياق ما يستند عليه الدعاء يأتى (الاضطرار) من أهم ما يستند عليه الدعاء ؛ لقول الله ﷻ فى سورة النمل : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل: ٦٢

والمضطر مَنْ إذا مسه الضر دعا من يكشف عنه ضره ، وهو الله وحده لا شريك له ، حالة أطبقت ظلماتها من كل جانب ، عاشها ثلاثة من الذين كانوا قبلنا إذْ أووا إلى غار ليبيتوا فيه ، فسدت بابه صخرة ، فتوسلوا إلى الله – تعالى – بصالح أعمالهم ؛ فأجاب الله – تعالى – دعاءهم ، وجعل لهم مخرجاً ، فخرجوا ، وقد انكشفت الصخرة ، رواه البخارى فى صحيحه، وهذا الحديث مشتمل على أضواء كاشفة حال الاضطرار الذى يستند عليه الدعاء ، وأول ضوء فيها التوجه إلى الله ﷻ واليقين بأنه كاشف الضر ، يرى ذلك المبصرون ، أما الذين يقلون درجة عن درجة الإبصار العالية فأول ما يقولون عند الاضطرار : (يا واقعة سودة ... ويا نهار منيل بستين نيلة .... وماذا نفعل ، ومن نقصد ، وما الحل ، وطبلت ، وزمرت ، ورقصت فى وادى الدمار ، وخربت ، وانتهينا ، .... وخلاص ....) وابل من الكلمات التى تدل على العمى ، ومن رحمة الله ﷻ أنه يرحمهم إذا دعوه ، ويكشف عنهم السوء إذا تضرعوا إليه ، بدليل ما قاله العلماء فى حديث : (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) حيث قالوا : إن المراد إنما الصبر الكامل الأجر ، فمن صبر بعد أن قال ما قال عند الصدمة الأولى أعطاه الله – تعالى – أجره ، لكنه أجر دون أجر من صبر عند الصدمة الأولى ، ولو سألت أحداً من غير أهل العلم أجابك بأن الذى لم يصبر عند الصدمة الأولى لا أجر له نهائياً ، عجيب !

وثانى هذه الأضواء الكاشفة أن يدعو المضطر الله ﷻ متوسلاً إليه بصالح العمل ، الذى عمله ابتغاء وجه الله – تعالى – دون سواه ، كما فعل هؤلاء الثلاثة ،

وفى سياق تفسير الآية الكريمة يقول ابن كثير : إن جابر بن سليم الهجيمى جاء النبى ﷺ ، وقال له : إلام تدعو ؟ فقال ﷺ : أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، وإن أضللت بأرض قفر ؛ فدعوته رد عليك ، أى ضالتك التى فقدت ، وركبك الذى كنت فيه ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك ، فقال له : أوصنى يا رسول الله ؛ فقال ﷺ : لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك ؛ فلا تشتمه بما تعلم فيه ، فإنه يكون لك أجره ، وعليه وزره ، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحب المخيلة ، ولا تسبن أحداً ، قال جابر بن سليم الهجيمى : فما سببت بعده أحداً ، ولا شاة ، لا بعيراً

ابن كثير (٣/ ٣٧٠)

ولنا أن نقف عند هذا النص من عدة وجوه

أولا: بناء الشخصية المسلمة ، التى تتعرض للاضطرار قبل أن يأتى الاضطرار ، وذلك بالتوحيد وإخلاص العبادة لله ﷻ ، ومكارم الأخلاق ، حتى إذا ما اضطر ، ودعت كان لها عند من يجيب المضطر إذا دعاه رصيد ، وليس على فضل الله من حرج ، وعليه فلا يصح أن تقول للمضطر العاصى أو من قل رصيده : لا تدع الله ؛ فإن الله لا يجيب دعاءك .

ثانياً : أن قوله ﷺ : أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، إلى آخره ، دليل على أن الدعوة إلى الله ﷻ دعوة إلى حب الله – تعالى – والإقبال عليه فهو السميع المجيب ، كاشف الضر ، والبأس ، منزل الغيث من السماء ، محى العباد والبلاد ، ولم يقل له النبى ﷺ : أدعو إلى الله الجبار الذى يعذب بالنار .

وثالثاً : أن على المسلم ألا يحقر من المعروف شيئاً ، وأقل المعروف أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ، وما أكثر العابسين فى وجوه الناس ، يعبرون بوجوههم العابسة

عما فى ضمائرهم السوداء ، ينذرون ولا يبشرون ، يصدون ولا يقبلون ، يسيئون ولا يحسنون ! ويدعون أنهم ملتزمون ، ولا أدرى بأى شىء يلتزمون ، وهذا هو الدين القائل : (يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا)

ومن المعروف المنصوص عليه أن تفرغ من دلوك شيئاً من الماء فى دلو طالب الماء (المستسقى) ومثله اليوم أن تفتح له الكيس البلاستيك ليضع فيه الخبز الذى اشتراه ، وأن تعينه فى تغيير إطار سيارته بآلة معك وبيدك ، خصوصاً إذا كان مسناً أو ضعيفاً أو امرأة قصدت بمساعدتها وجه الله ، لا أن تثنى عليك وتتبادلا أرقام المحمول

رابعاً : ألا تتكبر على الناس بإطالة ثوبك ، فإن أطلته بحكم العادة والبيئة دون قصد الخيلاء فلا بأس عليك

خامساً : أن تكون من الذين يستمعون فيستجيبون فقد التزم الهجيمى فلم يشتم حتى الشاة ، والبعير ، أولئك الذين إذا دعوا الله أجاب دعاءهم خصوصاً حال الاضطرار ،

الإخلاص فى الدعـــاء

قد يحكم الموقف ، ويشهد الواقع بإخلاص ؛ لأنه لا سبيل غيره ، وذلك الذى تصوره آية الإسراء : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ الإسراء: ٦٧

ففى البحر حيث جاء الضر ، وانقطعت شبكة الاتصالات ، فلا مجيب ، ليس فى البحر سعة إلى خلاص ، وكل ما فيه سعة ، ولكن لسمك القرش ، وإخوانه ، والفرق الذى يبشرهن بغذاء جديد قادم من السفينة الموشكة على الغرق ، ظلمات بعضها فوق بعض ، أمواج عاتية ، ورياح عاصفة ، وسفينة تعطلت ، فمن يرى حال من فيها ، ومن إلى البر يرسيها ، لا أحد إلا الله ﷻ

هذا إخلاص الضرورة ، الذى يشهد به الواقع ، وتنطق به الحال ، والناس فى مثل هذا الموقف يقولون : يا رب ، ليس لها من دونك كاشفة ، يدعون مخلصين له الدين ، ويؤمنون عندئذ بأنه لا ولى ، ولا نبى ، ولا أحد إلا الله ينجى من هذا الخطب الجلل

وكالعادة كثير من بعد النجاة يكفر ، وقليل مقتصد

قال تعالى فى آية لقمان : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ لقمان: ٣٢

ولا شك أن الله ﷻ يعلم ما سيكون من عباده إثر النجاة ، لكن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وذلك حجة على هؤلاء الذين دعوا الله مخلصين له الدين إخلاص المضطرين ، ليكون نسيانهم هذا بعد النجاة حجة عليهم والإخلاص المنشود ، الذى عليه العقيدة الصحيحة ، والعمل الصالح ، والدعاء هو الإخلاص فى السعة ، أى أن تكون بين أهلك وحولك الناس من قريب وأجنبى ، وأنت مؤمن بأن هؤلاء جميعاً هيهات أن ينفعوك بشىء إلا بإذن الله ، وبشىء قد كتبه الله ﷻ لك ، وهو الإخلاص الذى يستند عليه الدعاء حقا ، قال الله – تعالى – : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الأعراف: ٢٩

ولكى نفهم معنى الإخلاص علينا أن نعود إلى اللغة لنعرف الحقيقة فالشىء الخالص هو المحض الخال من أية شائبة ، صافية كانت ، أو كدرة ، فاللبن الخالص هو المحلوب من البهيمة بقرة كانت أو شاة

(نعجة) قبل أن تتدخل فيه يد بقطرة ماء تصبها فيه ، لو دخلته قطرة ماء واحدة فضلاً عن كوب لم يعد لبناً خالصاً ، وإنما هو لبن مخلوط بماء ، قل الماء أو كثر ، وقد يصلح هذا اللبن بعد خلطه بالماء للشرب ، ويكون صحياً جداً ، إذ يخفف الماء بعض ما فيه من دسم ، وقد يذكر أستاذ الطب فى محاضرته شيئاً غير الطب ، يخفف بذلك مرارته عند طلابه ، وهذا مطلوب من كل معلم على قدره ، ونافع بلا شك للطلاب ، لكنه لا يوصف بأنه خالص مع أنع نافع ؛ لأنه لو استمر على محض تخصصه لأصاب السآمة تلاميذه ،

وكثير من الأشياء يكون فيها المزج نافعاً إلا الدين ،

يجب أن يكون خالصاً من آية شائبة ، قال الله ﷻ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ الزمر: ٣ ، وذلك فى سورة الزمر التى جاء فيها قول المشركين فى أصنامهم :

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) فهم يقرون بوجود الله ، ويصرون على أن يعبدوا معه آلهة أخرى ، يظنون أنهم يتقربون بعبادتها إليه ، فأبى الله أن يقبل هذا ، وحكم عليهم بالشرك والكفر ، والضلال والعمى ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً

وما كان أبو بكر ﷺ يقصد بقوله يوم مات رسول الله ﷺ : (مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت) أن فى الصحابة من يعبد محمداً ﷺ أو أنهم فريقان : فريق يعبد محمداً ، وفريق يعبد الله ، ولكنه فقه الأساليب ، وغايته أننا جميعاً نعبد الله ﷻ فلا يخرجنا موت رسول الله ﷺ عن صدق إيماننا ، بل علينا أن نسلم تسليماً ، وأن نمضى إلى إقامة الدين برغم آلام الوداع ، وعظم الخطب ، وعظيم مَنْ فقدنا رسول الله ﷺ ، وتلا هذه الآية من سورة آل عمران : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

أَنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٤

وقد كان رسول الله ﷺ أحرص ما يكون على نزع بزور الشرك التى تتسلل إلى الصدور كما يتسلل طيف المنام إلى عين الرائى ، وهو محكم غمض عينيه ، فيرى العجائب والغرائب ، ومن ذلك ما جمع الناس عليه يوم مات ولده إبراهيم ، وصادف أن كسفت الشمس فى ذلك اليوم ، فظن الناس أنها كسفت من أجل موت ابن النبى ﷺ جمعهم وهو محزون القلب ، باكى الطرف ، وقال لهم : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، ولا ينكسفان لموت أحد ، ولا لمولده ، وأن عليهم إذا رأوا ذلك أن يهرعوا إلى الصلاة ، والصدقة ، ليكشف الله عنهم السوء ، فتظهر الشمس ويبدو القمر ، ولا يختل لهم عمل

ولا يخطئهم الحساب ، والله ﷻ أمره أن يقول للناس : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأنعام: ٥٠

فمن زعم أن أحداً يعلم الغيب إلا الله ، أو عنده خزائن الله ، أو ملك نزل من السماء فهو أعمى ، وأعمى العين يجاب دعاؤه ، لكن أعمى التفكر لا يجاب دعاؤه ، رزقنا الله الإخلاص

ذكر فضل الله القديم

مما يستند عليه الدعاء فى الإسلام : ذكر فضل الله القديم على الداعي الذي يدعو الله ﷻ بالخير لحاضره ومستقبله ، بأن يقول : يا رب كما أكرمتني بالأمس فأكرمني اليوم ، وكما أنعمت علي فيما مضى أنعم اللهم عليّ فيما بقي ، وكما سترتني فيما عشت من عمري فاسترني فيما يأتي ، وهكذا

والدليل على ذلك آيات منها قول الله – تعالى – : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف: ١٠١

فالدعاء : توفني مسلماً وألحقني بالصالحين

وذكر فضل الله ﷻ الذى استند عليه الدعاء : (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ)

ويوسف عليه السلام قد علمه الله ﷻ ذلك على يدى والده يعقوب عليه السلام فقد قال له فى صدر السورة الكريمة سورة يوسف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ يوسف: ٦

فانظر إلى قوله : (كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ) فأين (كما) فى دعائنا ، من الذى قال : يا رب كما نقلتنى من حجرة المطرية إلى شقة مدينة نصر أكرمنى بقصر واسع فى المدن الجديدة ، وهو يسعى إلى أسباب ذلك من جمع المال الحلال ، والرغبة فى التوسعة على نفسه ، وعياله ، لا ليغيظ جيرانه القدامى ، ويرى أعداءه أن زوجته التى يكرهون هى قدم السعد عليه

ومن تلك الآيات الدالة على استناد الدعاء على ما سبق من فضل الله العظيم قوله ﷻ فى مطلع سورة مريم : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ مريم: ٤

فالدعاء الذى سأله زكريا عليه السلام أن يهب له غلاماً طاهراً ، فقد استند على ذكر فضل الله القديم عليه ، إذْ قال : (وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا) أى كما أجبت

دعائى فيما مضى ، فأسعدتنى بالإجابة إنى ادعوك الآن ، فلا تحرمنى ، وقد كان ، بشره الله ، ورزقه يحيى عليه السلام ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ مريم: ٧

أى لم يسم قبل يحى بن زكريا أحد بهذا الاسم

ومن هذه الآيات ما ورد فى ذات السورة على لسان إبراهيم عليه السلام حيث قال عز وجل :

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ مريم: ٤٧

فمن منا جعل دعاءه مستنداً على ما سبق من فضل الله – تعالى – عليه فكان كمن يتوسل بالله إلى الله ، وما أعظم أن نتوسل إلى فضل الله ، والله عز وجل يحب ذلك ، والناس يحبونه ، ألا ترى الرجل يقصد الرجل فى شىء ، فيذكر بين يديه سالف يريه من فضل قديم ، بأن يقول له : أنا لا أنسى ما عشت تلك المكرمة التى كانت منك يوم مات والدى – رحمه الله – ووالدك الكريم ، منذ ثلاثين سنة ، حيث وقفت إلى جوارنا وقفة راجل ، حتى إنك دفعت لنا أجر القارىء ، والمبتهل ، والفراشة ، والذى منه ، ولم تكلفنا من ذلك شىء

(شيئا) أكرمك الله وأعزك ، وجعل ذلك فى موازين أعمالك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وبعدها سألتنا عما نحتاج ، وفعلت ، وفعلت ، حتى إنك وفقك الله – علمتنا الشرع ، وقلت لنا : إن كانت أمكم راغبة فى الزواج فهذا حقها بعد انقضاء عدتها أربعة أشهر وعشر ، وأنه ليس لنا أن نمنعها ، حتى إن بعض المجرمين ظن أنك تلمح بذلك إلى رغبتك فيها ، وسكتوا لما رأوك قد تزوجت بصاحبة الصون والعفاف التركية الجذور ، ونحن نعلم طبعاً أننا لسنا قد المقام ، والوالدة – رحمها الله – عاشت على ذكرى أبينا المرحوم بإذن الله – تعالى –

وبعد سرد مثل هذا يقول له : لقد جئتك سيدى الآن فى حاجة ، وإن شاء الله يقضيها الله على يديك ، هى كذا وكيت ، ويكون هذا النحو مسوغاً لقبول حاجتك

، والسعى فى قضائها ، فما لنا بنصر طريقنا إلى العباد ، ولا بنصر طريقنا إلى رب العباد عز وجل وقد هدانا سبلنا ، وأرشدنا إلى ما يستند عليه دعاؤنا ، فلماذا آثرنا أن يكون دعاؤنا ضعيفاً وبأيدينا أن نقويه ، ماذا علينا لو دعونا الله قائلين بـ (كما) التى اختفت ، فقلنا كل ما فينا منك ، أنت ولى النعمة ، سترت ، ورزقت ، وأطعمت ، وسقيت من غير ما حول منا ولا قوة ، وحالنا بعد لا يخفى عليك ، هب لنا كذا وكذا

إن الذى تزوجت بناته الثلاث وبقيت الصغرى التى صارت على مشارف الثلاثين لا يذكر حين يدعو لها أن الله – تعالى – أكرمه فى أخواتها من قبل ، نسى ذلك أو تناساه ، ولم يذكر إلا شيئاً واحداً هو صريحه أن تتزوج الباقية ، بأى شكل من الأشكال حتى ولو من دجال !

مناخ النعم

ومما يستند عليه الدعاء فى الإسلام أن يكون الداعى فى مناخ النعم التى حظى بها غيره ، يمر عليها فلا يراها خبط عشواء ، ولا يرى أهلها أهلاً لها ، ولا يتمنى زوالها ، وإنما يدعو الله الذى آتاهم إياها أن يرزقه كما رزقهم ، وأن يسبغ عليهم من نعمه كما أسبغ عليهم ، والدليل على ذلك أن زكريا عليه السلام كان كلما دخل على مريم المحراب ، وجد عندها رزقا ، فسألها ذات مرة : أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، قال الله عز وجل فى سورة آل عمران :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَب لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ آل عمران: ٣٨ – ٣٩

إذاً استند دعاء زكريا عليه السلام على مناخ النعم

ما قال لمريم : يا بنت الإيه ؟ ولا قال : يا سلام

ولا قال : إش إش ، وإنما رآها فى نعمة ورزق فدعا ربه الذي رزقها أن يرزقه ، فرزقه ما هو فى حاجة إليه ، وهنا نتوقف وقفة ضرورية لها اتصال بهذا الفقه ، وهى أنه لا يشترط أن يرزقك الله نسخة مما رزقه الناس، فزكريا لم يسأل مثل الذى عند مريم من طعام ، وإنما سأل الله الذرية ، فآتاه الله الذرية ، فالفلاح قد تمر به زوجة طبيب موفقة ، فيريد طبيباً لابنته الفلاحة التى أقعدها من المدرسة وهى فى الصف الثانى الابتدائى فبمن يتزوج (عبده) الفلاح الشاب إن رزق الله ابنة الفلاح القديم طبيباً ، هل يتزوج طبيبة ، وينتكس الخلق !

إن كان لابد سائلاً الله ﷻ زوجاً لابنته فعليه أن يسأله ﷻ رجلاً صالحاً قد يكون (عبده) هو الفلاح الصالح ، وقد يمر به طبيب يشتهى الزواج من فلاحة بعد أن ذاق المر من أم ولده الطبيبة التى رفعت ضده قضية خلع ، فلا بأس

وقد تمر على البساتين الغناء ، والقصور الشاهقة والسيارات الفارهة ، حيث الجمال والذوق ، والهدوء ، وسحائب الندى والظل الظليل ، فتسأل الله ﷻ أن يشفيك من مرض تعانى منه أشد المعاناة ، هذا وارد ، وهو من الفقه بمكان ، فليس شرطاً أن تسأل الله – تعالى – من جنس ما ترى عيناك من النعم قائلاً : (اللى أعطاهم يعطينا) واحذر أن تقول كما يقول كثير من الناس من الذين لا علم عندهم : أنا لا أريد الحدائق ، ولا البساتين ، ولا القصور ، أنا فقط أريد الستر ، بينما عيناك تكادان تنخلعان من رأسك ، وتطيران فوق الأشجار ، وتظل تنتظر بالليل السمار، وتتركانك أعمى ، تمضى بدونهما ، حيث إنك أتعبتهما فى مشاهدة ما أنت فيه من بؤس ، وفقر ، وأنت تلتمس لعينيك الأعذار ، وإنما عليك أن تسأل – الله ﷻ الخير الذى ترجو ، وأنت فى مناخ النعم التى أنعم الله بها على غيرك

والدليل على هذا المستند كذلك قول الله – تبارك وتعالى – فى آية النساء :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا

ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾ النساء: ٣٢

إذاً هناك تفضيل بلا شك ، وأنت ترى ما فضل الله به أخاك عليك من زينة الحياة الدنيا ، وعليك إذْ رأيت أمران :

الأول : ألا تتمنى زوال ما عند غيرك من نعمة

والثانى : أن تسأل الله ﷻ من فضله ، فهو الذى أعطاه ، وهو قادر على إعطائك ، وإعطاء جميع السائلين ، ولو أن الله ﷻ أعطى كل سائل مسألته لما نقص ذلك من ملكه شيئاً

وأنا أرى أن الله ﷻ قد بين الداء والدواء معاً فى هذه الآية ، فالداء هو ما يصيب كثيراً من الناس عند رؤية النعم التى فضل الله بها إخوانهم عليهم ، حيث يكون الداء أى تمنى زوال هذه النعم ، إما بانتقالها إلى مَنْ رآها ، وإما بأن تحترق فى البحر ، أو تذهب إلى أى آدمى ولو كان من يهود إسرائيل الذين يقتلون أطفالنا ويدنسون مقدساتنا ، فلتذهب فى داهية ، المهم ألا تكون عند فلان هذا الذى يستحق الحريق ، لا أن يبلع من النعم الريق ، ودواء ذلك الناجع أن يسأل الحاسد ربه قبل أن تحرقه نيران الحسد ، فنار الحسد لا تحرق المحسود ، وإنما تحرق الحاسد ،

وقد قال الله – تعالى – فى هؤلاء الحسدة : ﴿ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ﴾ آل عمران: ١١٩

إن سؤال المتسرع بتمنى زوال النعم من المنعم عليه ربه ﷻ خير علاج له فى الحال ؛ لأن الله ﷻ واسع عليم ، وهو الذى قال ، وقوله الحق : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ النساء: ٣٢

هذا سؤال يستند على ما نرى من نعم ، نعيش فى مناخها ، نشم طيب رائحتها، نتقيأ ظلالها ، وربما قذف لنا أحد الخدم ، ثمرة من فاكهتها ، أو حبة عنب من

عناقيدها ، وربما كانت النعمة ولداً صالحاً ، أو زوجة صالحة ، أو توفيقاً في عمل أو غير ذلك ، فعلينا أن نقول : ما شاء الله .... بارك الله ، ثم ندعو لأنفسنا بما فيه صلاح أمرنا ، وإرضاء الله – ربنا –

مدح الله ﷻ

شرفت بالعمل أستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ستة أعوام ، وإبان العمل فيها ألفت إخواناً من علماء المملكة العربية السعودية ، وهم أهل علم وفضل وخلق ، وتواضع ، وذات مساء وجدت موظفاً بالكلية يقف حائراً متطلعاً إلى من يزيل عنه الحيرة ، ووقف على استحياء ، ونحن مجتمعون ، فناداه أحد الفضلاء ، وقال له : ما تبغى ؟

فقال : لقد كتبت الدعوة إلى فلان ، لكن لا أدرى بم أصدرها ؟

هل هو صاحب سعادة ، أم صاحب معالٍ ، لا أدرى ، لو كان صاحب سمو ملكى لهان الأمر عليّ ، إذ السادة أصحاب السمو الملكى معروفون ؛ فقال الفاضل له : أحسنت أحسنت ، آيش اسم الرجال ؟

قال : فلان

قال : آيش ! والله ما أدرى ، انتظر للغد إن شاء الله ، نسأل فلانا ، فلما كان الغد ، وجاء فلان سألوه عن المدعو ، فقال : هو صاحب سعادة ، لا صاحب المعالى ، ولا شيء هكذا ، فاكتب ، فكتب ، وأرسلت الدعوة .

رأى القوم أن مخاطبة صاحب المعالى بصاحب السعادة لا تجوز ، وأن لكل إنسان قدره ، ولقبه

فكيف تغافلنا عن قدر ربنا ﷻ ومما يستند عليه الدعاء في الإسلام مدح الله ﷻ بما هو أهله

سئل الإمام مالك – رحمه الله – عن الدعاء ، كيف يكون ؟

وما أحب الأسماء الحسنى ، وأقربها إلى إجابة الدعاء ؛ فقال : أرى أن يدعو المسلم ربه بما دعا به الأنبياء :

(ربنا ... ربنا .. ربنا) هكذا أخذ يردد (ربنا) ؛ لأنها في كتاب الله ، قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٠ ، وقال نوح من قبل : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ نوح: ٢٨ ، أي : هلاكاً

وقال موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ طه: ٢٥ – ٣٢

وأمر الله ﷻ خاتمهم سيدنا محمد ﷺ أن يقول : ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ طه: ١١٤ ، وأن يقول : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ الإسراء: ٨٠

والدليل على أن المدح من مستندات الدعاء ودعائمه فاتحة الكتاب ، فالدعاء فيها : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ الفاتحة: ٦ ، ٧

ولكن انظر إلى ما استند عليه هذا الدعاء المهم من مدح الله ﷻ فنحن نقول قبله : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ الفاتحة: ١ – ٥

، ثم ندعو وقد أسندنا دعاءنا على دعامة مهمة هى مدح الله ﷻ ،

والذى يجب أن نبصره فلا يغيب عنا أننا ربما مدحنا الناس بما ليس فيهم تملقاً أو نفاقاً ، أو استعطافاً كالنابغة حيث مدح النعمان بقوله :

فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فتلك مبالغة ، والمبالغة بابها المدح ، ومقابله والرثاء والغزل ، وهى فى الغزل أظهر ، فالذى يقول لخطيبته : يا قمر يعلم أنها ليست قمراً ، وإن رآها كذلك ، وهو لا قدر الله إن رأى منها بعد الزواج قبحاً كره دون اللعنة اليوم الذى نعتها فيه بالقمر ، فهى قطعة من الليل مظلمة ، لكنه القدر ، وما هو بالقدر ، لكننا إذا مدحنا الله ﷻ ففى ذلك أمران :

الأول : أن كل كمال فيه ﷻ ، فلا مبالغة ، ونحن حين نمدحه ﷻ لا نمدحه من تلقاء أنفسنا ، ولا من اختراع عباراتنا ، وإنما نمدحه كما أراد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ الفاتحة: ٢ ، وربما يليق به مما أمرنا سبحانه به ، وحيث قال :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ الأعراف: ١٨٠

والثانى : أننا لا نخادعه ﷻ وإنما نقول الحق الذى وقر فى قلوبنا ، ونطقت به ألسنتنا ، ألا ترى إلى قوله - عز من قائل -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾ البقرة: ٨-١٠

ومن ثم كان على الداعى قبل أن يدعو أن يعلم لله ﷻ قدره ، وأن يمدحه بما ارتضى سبحانه من مديح ، يحبه ، ولا يحب سواه ، وأن يكون ذلك مستقراً فى قلبه عقيدة لا رؤية تتغير ، فإذا أجاب الله دعاءه كما سأل فبها ونعمت

وإذا أعطاه غير ما سأل ، ففيه الخير الذى ليس فيما سأل

وإذا ادخر له فى الآخرة خيراً مما سأل فقد أراد به الخير كله وهو ﷻ أكرم مسئول ، وأعظم مأمول ، رب الأرض والسماء ، الفعال لما يشاء ، تبارك الله رب العالمين

الإيمان مما يستند عليه الدعاء

الإيمان مما يستند عليه الدعاء فى الإسلام ، فإن كانت إجابته نصراً ؛ فالله ﷻ يقول فى آية الروم : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الروم: ٤٧ ، وقد ثبت فى صحيح البخارى قول النبى ﷺ : (اللهم انصرنا عليهم)، فكان النصر ، وقال الله ﷻ : ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ الأحزاب: ٢٥

فانظر إلى قوله ﷻ (وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ) وقد تمثل نصره ﷻ المؤمنين فى (وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ) وهذا صدر الآية السابقة

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ ﴾ الأحزاب: ٢٥

كما تمثل نصره ﷻ المؤمنين فى ساحة القتال مثل (يوم بدر) وغيره من المواطن الكثيرة ، فثبت المؤمنين ، وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، وأنزل جنوده التى لم يرها أحد ، فالنصر نصران : نصر برد العدو بغيظه دون أن ينال خيراً ، وكفاية المؤمنين القتال ، ونصر بتأييد المقاتلين وتثبيتهم ، وإنزال الملائكة معهم ، فأنت إما أن تحارب ، والله معك ، والنصر لك ، وإما أن يكفيك الله القتال أصلاً ، برد عدوك عنك ، وهو معك كذلك ، وإن كانت إجابته فضلاً أى فضل ،فالله ﷻ يقول :

﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ البقرة: ١٠٥ ،

والدليل الصريح على أن الإيمان مستند من مستندات الدعاء قول الله ﷻ فى سورة الصافات : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ

مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ الصافات: ٧٥ - ٨١

فقوله ﷻ: (إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ) دليل واضح صريح على أن الإيمان يستند عليه الدعاء، فقد أجاب الله وهو نعم المجيبون، دعاء نوح؛ لأن نوحاً من عباد الله المؤمنين، وقوله – تعالى –: (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ)، يشير إلى قضية مهمة من قضايا الإيمان، وهو مطلوب لدرء الأدران التى تتمثل فى الشوائب التى تجلبها العادات والتقاليد من زعم بعض الناس أموراً تقتضى التأويل، فأنت تجد الرجل يقول: (مدد يا حسين) فإذا بك تحمله على التأويل؛ فتقول: إن معناه: مدد يا رب حسين، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، وهذا تأويل مهم حتى لا تخرج القائل عن حظيرة الدين؛ لأن المدد من الله، لا من أى أحد سواه

والقاعدة التى عليها العلماء: أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج، فما الداعى إلى البنيات والجادة واضحة، وليس فيها من معوقات تحول دون الوصول إلى الغايات، فقل: (يا رب) من أول الأمر، دون لف ودوران، وقل: (مدد يا رب) و (أحبك يا حسين) والدين يطلب من الناس أن يعطوا كل ذى حق حقه،

هكذا قال سلمان الفارسى لأخيه أبى الدرداء: إن لعينيك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لربك عليك حقا؛ فأعط كل ذى حق حقه، فلما أصبح أبو الدرداء حكى للنبى ﷺ ما كان، وما قيل؛ فقال ﷺ: صدق سلمان.

ومن حق الله – تعالى – علينا أن ندعوه وحده دون سواه، وعلينا أن نعرف لله ﷻ حقه، وأن نعرف لكل من له علينا حقه، ومن حق الحسين أن نحبه ﷺ، لا

أن نسأله المدد؛ لأن ذلك ليس من الإحسان، ونوح ﷺ وغيره من الأنبياء دعوا الله ﷻ وحده، انظر إلى قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ الصافات: ٧٥

قال: نادانا، أى مباشرة دون واسطة، كل النبيين، كما جاء فى الكتاب العزيز قالوا: ربنا .. ربنا .. ربنا ... وهم مؤمنون؛ فاستجاب الله – تعالى – دعاءهم؛ لأنهم أحسنوا، فما بالنا نسىء، والإيمان الذى يستقر فى القلب وقد زينه الله ﷻ فى هذا القلب، فإذا به بهاء مشرق، وجمال غير مشوب بقبح، إننى أعرف أن الإنسان قد يلجأ للاتصال بمن يلابس المقصود الاتصال به، من سكرتير، وغيره إذا كان المقصود لا يرد من خطه المباشر، لكن إذا كان المقصود يرد من أول جرس، ويجيب فما الداعى إلى الاتصال بغيره، والله ﷻ سميع مجيب، فما الداعى إلى غير المباشر، والمباشر سهل قريب، ودود، ﷻ

العـــــدل

أول الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم كما جاء فى الحديث الشريف (إمام عادل) وأول السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، والأوائل فى كل شىء مهمة، ألا ترى إلى قول ربنا ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ آل عمران: ٩٦، ٩٧

فمن دعائم الدعاء، وما يستند عليه (العدل) الذى يشمل الحاكم، ورئيس العمل المباشر، ورئيس القسم، ورئيس العمال، والرجل فى بيته يعدل بين أولاده، وبين نسائه إن كان متزوجاً بأكثر من زوجة، وإن أحب بعض أولاده حبا أشد من حبه بقيتهم، وإن أحب زوجة دون أختها، قائلاً ما قاله ﷺ: (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تحاسبنى أو تؤاخذنى فيما لا أملك، وأشار إلى قلبه ﷺ)

والله – تبارك وتعالى – يقول : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ النساء: ١٣٥،

ويقول : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة: ٨

وقد كره عمر ﷺ وجه مَنْ قتل أخاه زيداً ، فقال له : أذلك يجعلك تظلمنى يا أمير المؤمنين ، قال عمر : لا

وأن يدرب المسلم نفسه على قول : (لا) فى وجه الظلم ، دليل على استقامته على هدى الله ، وهدى الله هو الهدى

ومن أمراضنا التى يجب أن نسعى فى علاجها كى يجيب الله دعاءنا ، ويصلح جميع أحوالنا اتباع الهوى فى قضية العدل ، فنحن نعدل مع مَنْ نحب ، ونظلم مع من نبغض فى الوقت الذى حذرنا فيه ربنا ﷻ من هذا ، فقال : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ المائدة ٨ والشنآن : منتهى البغض ، الذى يحمل الإنسان على الظلم ، أى الإنسان الذى يخضع لسلطانه هواه ، والهوى تيار جارف ، يجر من يخضع له إلى هاوية بعيدة ، وواد سحيق ، وقد قال الله ﷻ لعبده ورسوله داود عليه السلام فى آية ص : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ص: ٢٦

ويقول ﷻ لخاتم النبيين رحمته للعالمين محمد ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ المائدة: ٤٨

ويقول له : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ المائدة: ٤٩

فاتباع الهوى ضلال مبين ، ولله در من قال :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى
وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

والعقل أساس فى إحكام العدل ، والحكم به ، وهو نور يزداد تنويراً ، وهدى وبصيرة كلما عصى صاحبه هواه، فإن أخضع الإنسان عقله للهوى فقد أعماه ، وإذا عمى العقل فلا ضوء للقلب ولا للأمعاء ، صار كل شىء مظلما وإن ادعى الإنسان أن كل شىء فيه مضىء ، فصاحب الخمر ومدمن المخدرات يدعى أنه بعد تجرعها وتناولها عشرة على عشرة ، وهو فى الحقيقة طينة على طينة ، والذى يهمل أولاده فلا ينفق عليهم جنيهاً، وينفق فى الوقت ذاته على غانية الألوف المؤلفة يقول : معها أشعر بالحياة ، وهو فى الحقيقة معها يموت ، فحياته فى ابتسامة صغاره ، وسعادتهم ، وكفالتهم ، فلو نظر إليهم بعمق لوجد نفسه أشبه ما يكون بميت أوتى فرصة النظر إلى أولاده الذين صاروا يتامى من بعده وقد ضيع المجرمون أموالهم التى تركها لهم ، فهم يقفون على قبره ، وعلى جلودهم ملابس بالية ، وفى وجوههم الشاحبة عيون باكية ، وفى صدورهم قلوب ممزقة ، والفرق بينه وبين هذا الميت أن الميت لا يملك الخروج من مقبرته ، وهو يملك الخروج من الفندق ، أو من شقة النكسة التى يظنها شقة الانتصار على البؤس ، والفرار من دنيا التعاسة إلى واحة السعادة ، فما له لا يهب إلى جياع ، ويودع الضياع ، ويتوب إلى الله – تعالى – وهو سبحانه يقبل توبة التائبين ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، إنه إن فعل هذا فقد أبصر ، وإن تمادى فيما هو فيه ظل أعمى ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ، يا ليت كل ظالم يتذكر أنه حين يتخلى

عن الظلم ، ويعدل يستجيب الله – تعالى – دعاءه المستند على العدل ، وهو لابد أن يدعو الله ؛ لأن الدنيا لا تدوم على حالة واحدة

المظلـــــوم

يكفى أنه بحق (مظلوم) حتى وإن كان كافراً لكى يصعد الدعاء منه مستنداً على أهم ما يستند عليه الدعاء ، جاء فى الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم

(ودعوة المظلوم) يقول الله ﷻ فيها :

(وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين)

قال العلماء : رخص الله – تعالى – للمظلوم أن يدعو على من ظلمه ، نقلوه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وعن غيره من السلف الصالح –

والقضية تحتاج إلى بيان ، فإن كل امرىء يدّعى أنه مظلوم ، يستعطف بذلك قلوب الناس ، ويستجدى بذلك جيوب الكرام ، ويزيد الحياة سوء ، فالمظلوم بحق هو من له حق ، جار عليه ظالم ، وقد يكون هذا الحق مالاً بأنواعه من نقدية وعقار ، وغيرهما ، وقد يكون صاحب ميراث جار عليه كبير إخوته ، فاستولى عليه ظلماً وعدواناً ، ولدينا من المظلومين فى الميراث خصوصاً النساء من لو اتجهوا إلى الله ﷻ بالدعاء لثار البحر بأمر الله علينا فأغرق منازلنا ونحن نائمون ، وأغرق الزرع ، ولو نزلت صواعق من السماء آتت على كل شىء ، لكن الله – تعالى – ذو رحمة واسعة وحكمة بالغة ، وقد أعطى بتأجيل العقوبة الظالمين فرصة أن يردوا المظالم إلى أهلها قبل أن يأتى العذاب فى الدنيا أن الله – تعالى – ينتصر للمظلوم ولو بعد حين ، والظلم فى المواريث يكون الظالمون فيه قسمين :

ميت وحى ، فالميت من ظلم قبل موته ، فكتب لأحد دون أحد ، أو وصّى لأحد بغيته أن يظلم ورثته ، ولذا قال الله – تعالى – محذراً إياه : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ النساء: ١١

وقال : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ ﴾ النساء: ١٢ ، وقد أراد سعيد بن أبى وقاص ﷺ أن يتصدق بجميع ماله شكراً لله على أن شفاه ؛ فلم يرض بذلك رسول الله ﷺ حتى عرض الثلث فأمضاه له ، وهو يقول ﷺ : والثلث كثير ، ثم قال له : (أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس) وهذا فى صحيح البخارى وغيره

ومن هؤلاء الظالمين من يرغب فى الزواج بعد أن ماتت أم أولاده ، أى زوجته ، ويعلم أن أولاده يأبون ذلك ؛ لأنه سوف ينجب ولداً يشاركهم وأمه كذلك (وكأنهم اطلعوا على الغيب) فيكتب لهم جميع ما يملك إلا قليلاً ، حتى يزفوه ، ويقولوا : يا عريسنا يا منور قدامك ... الظابط والعسكر أدامك

فيأتى بولد هو أخ لهم ، فقير ، بائس ، يموت أبوه فيذهب إلى إخوته يناديهم بحقه فى ميراث أبيهم جميعاً فيخرجون له عقود البيع ، ويقولون له : اذهب إلى حضن أمك يا شاطر ، ضرر كبير يحدثه الناس فى حياتهم تترتب عليه مآس بعد موتهم ، والأعمال بالنيات أول أحاديث البخارى ، فماذا يقول هؤلاء إذا لاقوا رب العالمين الذى لم يأمر إلا بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وقد تولى بنفسه توزيع المواريث ، لم يتركها لملك معصوم ، ولا لنبى مرسل ،

وأما الحى فرجل ادعى أنّ أباه قد اعتمد عليه فنمت ثروته ، وأن إخوته كانوا بعيدين عن نشاط أبيهم ، فالذى شقى فى الأراضى الزراعية هو وحده دونهم ، والذى حمل المصنع على عاتقه هو وحده دون إخوته ، والذى واجه الأخطار وقاوم

الإعصار ، وأكثر من الأسفار هو وحده دون إخوته ، فهو وارث أبيه الوحيد ، ولا حق لأحد معه إلا فى العدد الذى تسمح به نفسه تفضلاً وتكرماً ومراعاة لعظام المقابر ، أما البنت فمقصوفة الرقبة ، يكفى أن والدها علمها حتى حصلت على الدكتوراه ، وجهزها ، فاشترى لها المطبخ كاملاً ، ولم ينس حتى مخرطة المليوخيا الخضراء ، ومفرمة الناشفة ، فماذا تريد بعد ذلك

وفى هذا ظلم كبير ، فإن من حق العامل مع أبيه أن يأخذ أجر مثله ، فإن تطوع لم يكن له حق فيه بعد وفاته ، فصار كل شىء ميراثاً ، حتى الهدايا ، أعطت امرأة من الصحابة أمها ذهباً هدية ، فماتت أمها ، وأرادت أن تأخذ الذهب الذى اشترته لأمها من حر مالها ؛ فقال لها ﷺ : لقد صار ميراثاً ، ولا نصيب لها فيه إلا بالقدر الذى تستحقه من ميراثها

ومن الظلم أن يكون لك مال عند غنى غير قادر ، لكنه قال : (مطل الغنى ظلم) وكم من الأغنياء يمطلون ، وهم قادرون على دفع ما عليهم لمصاحبة الذى قد يكون خادماً عندهم

والظلم ظلمات يوم القيامة .

دعوة الصائم

كان إذا صام ، جمع أولاده ، وأهله ، وخدمه ، وأخذ يدعو الله ﷻ إيماناً وتصديقاً بأن رسول الله ﷺ قال : ثلاثة لا ترد دعوتهم ، منهم الصائم عند فطره ، إنها لحظة تمام العمل ، وتمام عمل الصائم أن تغرب الشمس ، فإذا غربت وحان وقت فطره كان دعاؤه أقرب إلى القبول ، هكذا كان يفعل عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – وهو من أشد الناس حرصاً على اتباع النبي ﷺ إلى درجة أن من رأى حرصه على ذلك قال : به شىء من الجنون

والذى نرجو ألا يعمّى علينا هو أن على آداب الصائم التى هى سر أسراره ، وثمرته ، وليس ببعيد من الصواب أن تقول : إنها تحقق الغاية منه ؛ لقول الله ﷻ فى آية البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ البقرة: ١٨٣

فغاية الصيام بلوغ التقوى ، والتقوى مطلوبنا العزيز خصوصاً هذه الأيام، حيث كثرة الكلام وقلة العمل ، واضطراب الأقوال ، وقلة العلم ، وإثارة الهوامش ، وتغطية المتون ، والعناية بالنوافل دون الأركان ، والاهتمام بالشكل دون المعانى ، وبناء المساجد بين المساجد ، فبين المسجد والمسجد عشرة أمتار ، والشباب فى حاجة إلى مساكن ، واليتامى فى حاجة إلى طعام ، وطلاب العلم فى حاجة إلى كتب وقاعات ومعامل وأدوات وأساتذة متفرغين للعلم ،لا لاهثين وراء العيش

والاهتمام بذلك كله من فقه الدين ، ومن الأولويات بمكان ، ولكن بعض المسلمين لا يحب الأولويات ، يتعامل مع ظاهر النصوص دون فقه ، فالحج مرة فى العمر ، وهو لا يرى ذلك ، بل يراه كل عام ؛ لأنه يستطيع إلى ذلك سبيلاً (مالى وأنا حر فيه – مش أحسن ما اصرفه فى مصايف أوربا ..... يهددنا بذلك أم ماذا، لست أدرى) تقول له : أطعم المساكين ، فيقول : أطعمت ، ابن بيتاً لمساكين الشباب ، فيقول : والحكومة ماذا تفعل ،

لا فائدة فى حواره ، فهو فقيه نفسه ، والصواب على غير فقهه

وكذلك الحال فى الصيام ، كم مكثر منه ، الاثنين والخميس ، والجمعة والسبت حتى لا يفرد الجمعة بصيام ، ولكن مع هذه الكثرة أخلاقه غير أخلاق الصائمين ، وروحه كما يقول فى أنفه (منخاره) وعمل الظهر يؤجل إلى بعد فطره ، أو إلى غده إن شاء الله رب العالمين ، فكل شىء نصيب ، وكل شىء بقدر ، المهم أن يبتعد

الناس عنه ما دام صائماً ، إنه لا يريد شيئاً يزيده وجعا إلى ما يشعر به وجع الجوع ، ولتخرب الدنيا وما فيها ، فإن أحداً لا يأخذ إلا ما قسم الله له ، هيا هيا

والصيام بهذه الطريقة لا يرغب فيه الشرع ، فهو ليس صيام رمضان ، وإنما هو صيام نافلة وخدمة الناس ، وقضاء حوائجهم أحب إلى الله ﷻ من صيام يجافى بين الصائمين وبين عباد الله ﷻ

والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ؛ هكذا قال ﷺ ومن آداب الصائم ألا يقول الرفث ، وهو ما يستقبح ذكره ، لا سيما ما يكون بين المرء وزوجه فى المعاشرة الزوجية ، ولا يقول الزور فضلاً عن عمله ، فمن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه ، كما جاء فى الحديث الصحيح

وليس معناه أن من قال الزور عليه أن يفطر فقد فسد صومه ، وإنما هو من فقه الأساليب ، أى أن الله ﷻ غنى عن عمل العاملين ؛ فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وفى الذكر الحكيم يقول ربنا – تعالى – : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الحج: ٣٧

وكما لا يناله تعالى لحوم الأضاحى ولا دماؤها كذلك لا يناله حرمان الصائمين من الطعام والشراب ، وإنما يناله التقوى منهم ، أى الذى يتقرب به العبد إلى ربه هو مقتضى ما يقدمه من أعمال ، فى الأضاحى ، وفى غيرها ، نحن إذاً أمام صائم قضى نهاره

- ممتنعاً عن الطعام والشراب ، ومباشرة زوجته من طلوع الفجر إلى غروب الشمس
- وجاداً فى عمله متقناً برغم صومه ، لم يسلمه الجوع إلى تهاو ونوم وكسل
- وملتزماً بآداب دينه فى الصيام
- ودافعاً السوء بالحسن قائلاً : إنى امرؤ صائم ، ذلك الذى يستند عليه الدعاء على سبيل الجملة والمجموع لا القطاعى ،

الدعاء على منهج القرآنى

مما يستند عليه الدعاء فى الإسلام أن يكون على منهج القرآن ، ومعنى هذا أنّ الله ﷻ يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ الملك: ١٥

فالذى يمشى فى مناكب الأرض ويدعو الله أن ييسر له السعى ويحقق له الرزق إنما هو متبع منهج ربه ، حيث دعا الله على وفق ما يريده الله ﷻ

والذى ينام على سريره ، ولا يتحرك ويدعو إنما يدعو على غير هذا المنهج

- والله ﷻ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الجمعة: ٩

فالذى يترك البيع عندما يسمع النداء ويسعى إلى ذكر الله ، ويدعو الله يكون على منهج الله ﷻ أما الذى يسمع النداء ويظل فى حركة حياته يبيع ويشترى ، أو يعمل العمل الذى فى وسعه أن يتمه بعد الصلاة ويدعو الله ﷻ أن يبارك له فقد دعا الله على غير منهج كتابه ، وسمو توجيهه ، وإرشاده ،

- وكذلك حين يقول الله ﷻ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الجمعة: ١٠

على الداعى على منهج الله – تعالى – أن ينتشر فى الأرض بعد قضاء الصلاة ، ويبتغى من فضل الله ، ويدعو

أما الذى يعتكف بعد الصلاة ، فلا يخرج من مصلاه إلى ميادين العمل ، والحياة ويدعو ، وليس هناك من يسد مسده من عمال له ، ومن يكفونه لو كان به علة تمنعه من الضرب فى الأرض ويدعو ، فإنما يدعو على غير منهج القرآن الكريم

• والله ﷻ يقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ الفرقان: ٧٤

فمن دعا الله – تعالى – أن يهب له من زوجته وأولاده قرة عين له كان داعيا على منهج القرآن الكريم ، أم الذى يهمل ذلك ويدعو بأن تكون أجنبية قرة عين له فقد دعا الله على غير منهج كتابه ، ومن الناس من يدعو الله بذلك كثيراً ، وهو دعاء أقرب إلى العبث منه إلى الدعاء فما معنى أن تسأل الله سعادة فى الحرام ، ولا تسأله سعادة فى الحلال !

• والله ﷻ يقول : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ القصص: ٣٥

فمن قال : اللهم بارك لى فى أخى واشدد أزرى به ، فقد دعا الله على منهج كتابه ؛ لأن الله ﷻ جعل الأخ عوناً لأخيه ، والقوة فى دين الله ﷻ قوة قائمة على السبب ، والأخ من أهم أسباب القوة لأخيه سواء أكانت هذه الأخوة فى الدم ، والنسب أم كانت أخوة فى الدين ، فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، فالذى يدعو الله أن يخلصه من أخيه ، وأن ينزل عليه صاعقة تذهب به ، حتى يرتاح من وجدوه ،فتصبح اللقمة التى يتقاسمها معه خالصة له وحده ، وأن أخاه هذا سبب كارثته ، وخسارته ، فإنه يكون داعياً على غير منهج الله ﷻ فإن قال قائل : لكن واقع الحياة يشهد بأن هناك أخاً بالفعل سبب خسارة أخيه ، فهو أينما يوجهه لا يأتى بخير فالجواب :أن عليه إصلاحه ، تماماً كالذى عنده سيارة معطلة هى فى الأصل سبب من أسباب القوة ، فهل عليه أن يسعى إلى إصلاحها أم عليه أن يدعو الله أن ينزل عليها صاعقة من السماء فيراها كتلة من الفحم أمام عينيه ؟

إن العقل يقول : بأن عليه أن يسعى فى إصلاحها ، لكن الهوى يقول : الصاعقة لها أفضل ، والإسلام دين العقل لا الهوى ، والدليل على ذلك أن الطفيل بن عمرو الدوسى حين أستأذن النبى ﷺ أن يدعو قومه إلى الدين ودعاهم ، وظل عاماً كاملاً

يدعوهم وهم لا يستجيبون ، عاد إلى النبى ﷺ وسأله أن يدعو عليهم ، فماذا قال رسول الله ﷺ ؟ قال : اللهم اهْدِ دوساً فقد دعا لهم ولم يدع عليهم ، ولأننا غير راغبين فى بذل جهد للإصلاح نسأل الله دائماً أن يريحنا من كل شىء فيه عناء بأن ينزل عليه صاعقة من السماء ، وهذا دعاء على غير المنهج الذى يقول :

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ الحج: ٧٨

ومطلوب منا أن نجاهد فى الله حق جهاده ، ببذل أقصى ما لدينا من طاقة ، ونحن ندعو ، والله يفعل ما يشاء

تضافر القلوب على الدعاء

مما يستند عليه الدعاء فى الإسلام تضافر القلوب على الدعاء قلوب المساكين التى تتضافر على الدعاء للمحسن ، يقول البنانى فى حاشيته على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع فى أصول الفقه (٢-٣٦) : (يمكن أن يقصد إطعام الستين دون واحد فى ستين يوماً ؛ لفضل الجماعة وبركتهم ، وتضافر قلوبهم على الدعاء للمحسن ، فيكون أقرب إلى الإجابة ، ولعل فيهم مستجاباً بخلاف الواحد)

وأصل المسألة قول الله ﷻ ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ المجادلة: ٤ ، حيث أجاز الفقهاء إطعام مسكين واحداً فى ستين يوماً ؛ لأنه الهدف ما يعطى لا عدد المساكين ، أى عليه ستون وجبة (مُدّ) إما أن تعطى لمساكين ستين ، كل مسكين يعطى مُدّاً ، وإما أن تعطى لمسكين واحد فى ستين يوماً ، والأفضل أن تعطى لستين مسكيناً ، لتضافر قلوب المساكين على الدعاء للمحسن ، الذى أحسن إليهم ، وقد يكون فى الستين مسكين أو مسكينة مستجاب الدعاء ، أو مستجابة ، وهذا بخلاف الواحد ، فما أطيب الذين يعملون الصالحات لعدد كثير من الناس .

تصور هذا المعنى إذا نقلته من إطعام ستين مسكيناً إلى عدل حاكم تحته ستون مليوناً من البشر ، يحسن إليهم ، ويوسهم على العدل وما ينفعهم ؛ فتتضافر قلوبهم على الدعاء له ، فكيف يحصل على خير عظيم ، لا يحصيه إلا الله ﷻ

وانقل هذا المعنى إلى رجل غنى ، بنى مدرسة لفقراء الناس ، فإذا بهم يتعلمون فيها ، ويتخرجون فيها جميعاً ، وتتوالى من بعدهم أجيال ، تتضافر قلوبهم على الدعاء له ، فكيف ترى حاله ؟

وكذا من يعد أو يشارك فى بنك طعام ، يأكل منه الألوف من المحتاجين ، وكذا من يبنى مصنعاً لسد آفات البطالة ، ومَنْ يبنى مستشفى يعالج فيه الكثيرون من غير المحتاجين

وتصور هذا المعنى فيمن يبنى مسجداً ، ويصلح طريقاً ،أو يقضى على عطل فى الطريق أو يصلحه ، أو يرفع الأذى منه

إن هذا الفقه ليس خاصاً بإطعام ستين مسكيناً وجبة واحدة أو وجبتين ، وإنما معناه يمتد إلى كل خير يفعله القادر عليه من أجل الجماعة ، انظر إلى هذا الرجل الذى فتح فى ملكه الخاص طريقاً مختصراً من أجل أن يسلكه الناس فيسّر عليهم ، وخفف عنهم ، ورحمهم ، فانظر كيف يحصل على تضافر القلوب على الدعاء له

ولعلك تجد من ثمرة هذا فيما تراه من صلاة الجماعة التى أخبرنا عنها رسول الله ﷺ بأنها تفضل عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة

ألا ترى تضافر القلوب على قول (آمين) : ومعناها استجب يا رب ، أى : استجب دعاءنا إذ دعوناك ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وهذا من الصراط المستقيم ، أن يكون العمل مفيداً للجماعة ، وأن تكون الصدقة جارية ، وأن يكون النهر عذباً ممتداً سابقاً بالخيرات يشرب منه العباد ، وترتوى منه البلاد

لقد اشترى عثمان بن عفان ﷺ بئر رومة ، لا ليشرب منها وأسرته وأحبته ، وإنما ليشرب منها المسلمون ، وقد قال النبى ﷺ : ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ، وقد كان أبان بن عثمان – رضى الله عنهما – له ابن هو عبد الرحمن بن أبان كان يشترى العبيد ، ويكسوهم ، ويعتقهم بنية أن يخفف الله عنه سكرات الموت ، فما مات فى مسجده وهو نائم ؛ فهنيئاً لكل من يضع فى قلبه الجماعة ، فيعمل من أجلها عملاً ينفعهم ، فإذا بالقلوب تتضافر على الدعاء له ، وقد يكون منهم رجل مستجاب الدعوة ، فيرحمه الله كما رحمهم ، ويغفر له يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم

الأدب مع الله مما يستند عليه الدعاء

كثيراً ما نسمع : فلان مؤدب ، لا يسأل حاجته ، يغلبه حياؤه ، ويفطن له ذكى من الكرام ، فيعطيه ؛ لأنه يود أن يكفيه السؤال ، وهذا جميل ، فإن الكريم الحق هو الذى يعطيك دون أن يأخذ منك ، ولو سألته بوجهك فأعطاك كان قد أعطاك وأخذ منك ، قال الشاعر :

إذا أعطيتنى بسؤال وجهى
فقد أعطيتنى وأخذتَ منّى

هذا جانب من جوانب الأدب مع الناس ، وما هكذا يكون الأدب مع الله ﷻ فى هذا المجال ؛لأن الله – تعالى – أمرنا أن ندعوه ونسأله من فضله ؛ ليعطينا ، قال تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ غافر: ٦٠ ، وقال عز من قائل :

﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ النساء: ٣٢

وإذا كان الناس يغضبهم السؤال ، فإن الله ﷻ يغضبه ألا يسأل عباده ، ولله در القائل :

الله يغضب إن تركت سؤاله
وبنى آدم حين يسأل يغضب

فمن الأدب مع الله ﷻ أن تسأله ؛ لقوله ﷺ : (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله)

والأدب مع الله ﷻ الذى هو مستند من مستندات الدعاء يقتضى العمل الذى يحقق رضوانه

قال العلماء : طاعة الله ﷻ توصل إلى الجنة ، والأدب مع الله تعالى – يوصل رضوانه ، ورضوان الله – تعالى – أكبر من الجنة ، ومساكنها الطيبة ، والدليل على ذلك قول الله – تعالى – : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ التوبة: ٧٢

وقد جرّب الناس هذا المعنى فيما بينهم بصدق وغير صدق ، حيث يقول المعطَى – لمن أعطاه : رضاك عنى أهم من كل هذا ، وكم شكرت زوجة زوجها على عظيم هداياه ؛ فقال لها : المهم أن تكون راضية عندى ، وكم أعلنت أنها راضية عنه ، وفى الغالب تعلن ذلك إذا كانت هداياه غالية نفيسة آثرها بها دون غيرها

وقد رضى إنسان عن آخر من حيث تحقق غضب آخر ، كما فى جانب الإيثار القائم على الهوى والميول القلبى ، لا كما آثر عمر بن الخطاب ﷺ قريبة رسول الله ﷺ على قريبته ، فأعطى قريبة رسول الله ثوباً أفضل وأغلى من الثوب الذى قدمه لقريبته ، وكان قد أعدّ الأفضل لها ، فلما اجتمعا أعطى الأفضل لقريبة النبى ﷺ

وهذا درس من دروس الأدب مع الله ﷻ نتعلمه ، ونقيس عليه ما إذا اجتمع أمران أحدهما يتعلق برضا الله ﷻ والآخر يتعلق برضا الناس ، قال الله – تعالى – :

﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ الأحزاب: ٣٧

وقد قال ﷺ للمرأة التى سألته عن حكم صيام نذر تؤديه عن أمها التى ماتت : لو أن على أمك ديناً أكنت قاضيته قالت : نعم ، قال : فدين الله أولى بالقضاء ،

والأولويات المتعلقة بذات الله ﷻ فى حياتنا كثيرة ، ونحن نؤثر عليها ما يتعلق بخشية الناس ظانين بأن الله واسع المغفرة ، والناس لا يغفرون ، ومن ذلك تأجيل وقت الصلاة بغير ضرورة ، للانشغال ولو بمكالمة تليفونية وغيرها مما يمكن الاعتذار عنه وتأجيله ، وفى حديث أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – أن النبى ﷺ كان يكلم أهله فإذا حضر وقت الصلاة قام ، كأنه لا يعرفهم ، ولا يعرفونه ، ومعروف عن النبى ﷺ أنه ما غضب لنفسه مرة واحدة ، وإنما كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، ونحن ، ولله الحمد على كل حال ، على عكس ذلك تماماً إلا من رحم الله ، نغضب حياتنا كلها إذا مسنا وأهلنا جرح من أحد ، وقلما نغضب إذا اعتدى على دين الله ، لو شتم أحد دين الله وخرّف ، واتهم السنة كلها إلا بالقليل بالوضع والكذب قلنا : إنه مفكر ، وهذا رأيه ، ولو شتمنا هذا الرجل غضبنا ورجمناه وأباه ، والبطن الذى حمله ، والثدى الذى أرضعه ، والأرض التى أقلته ، والسماء التى أظلته ، فليبتعد عنا ، وليقل ما يشاء ، وانظر إلى ألوف مؤلفة من البشر الذين يلعنون الدين فى الشارع وأثر ذلك هو استغفار باللسان ، ولو لعن أحدُ من هؤلاء أبا أحد من المارة لقامت القيامة ، وكذلك من سرق المال العام وهو مال الله فأمره إلى القضاء ، أما من سرق منا عشرة جنيهات فالويل له ، وليس هذا من الأدب مع الله فى شىء

الإسلام وعلاج العمى

العلم مما يستند عليه الدعاء

دعا نوح ربه أن يرحم ولده الذى ظن أن الجبل يعصمه من الماء ، وقال بعد أن غرق ولده : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ هود: ٤٥

ورد الله – تعالى على عبده ورسوله نوح عليه السلام بقوله الفصل : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ هود: ٤٦

وقال نوح عليه السلام مؤمناً ومسلماً وجهه لله ﷻ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ هود: ٤٧

إن ابن نوح من أهله بلا شك دماً ونسباً ، لكن الله – تعالى – بين له أنه ليس من أهله ؛ لأنه عمل غير صالح ، ما صار فرداً من الأهل ، وإنما صار عملاً غير صالح ، فتباعدت المسافة ، وانتفت الأهلية

وفى هذا السياق أذكر أن مصعب بن عمير رضي الله عنه مرّ بأخيه أبى عزيز ، وكان من أسرى بدر ، فقال لمن أسره : اشدد عليه ، فإن أمه ذات مال ، فعاتبه أخوه ، وقال : أهكذا تفعل بأخيك ؟ فرد عليه مصعب بن عمير قائلاً : لقد صار أخى دونك ، أى هذا المسلم الذى أسره صار أخاً لمصعب دون ابن أمه الذى لم يكن على دينه

وقد مات أبو طالب عم رسول الله ﷺ على شركه ، وكان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ فقال ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك ، فنزل قول الله ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ التوبة: ١١٣

وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه سمع رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقال له : أيستغفر الرجل لأبويه المشركين ؟

فقال الرجل : وماذا فى هذا ، ألم يستغفر إبراهيم لأبيه وكان مشركاً ، فحكى علىّ ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ، وأنزل الله قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ

لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ التوبة: ١١٤

أى أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه وفاء بوعده ، حيث قال له : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ مريم: ٤٧

فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، فلم يستغفر له بعد

ومن هنا أقول : كم من عدو لله ندعو له ، ودعاؤنا بلا شك غير جائز شرعاً ؛ إنما ندعو للأولياء الله ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وقد يكون الإنسان الداعى لنفسه عدواً لله فى بعض المواقف ؛ لأن عداوة الله معناها العداوة لشرعه وأحكامه ، كالذى يدعو عند ارتكاب المعصية أن ييسر له الله ارتكابها ، أرأيت إلى هذا الذى ينتظر امرأة أجنبية ليرتكب معها الفاحشة : كيف يرفع يديه إلى السماء ويقول : يا رب يسّر وصولها ، ولا أحد يعطلها ؟ أهذا دعاء قائم على علم ؟

وإلى هذا الذى يدعو الله أن يبارك له فى مال حرام

أهذا دعاء مستند على علم !

وإلى هذا الذى تعرف يقيناً أنه لص ، يزورك ، ويشرب معك الشاى فإذا أراد أن ينصرف قلت له : وفقك الله وأعانك ، فعلى أى شىء تدعو له ؟

هل تريد من الله أن يوفقه إلى سرقة الناس ويعينه عليها ، إننا ندعو الله لحكامنا أن يرزقهم الله بطانة صالحة ، تدله على الخير وتعينه عليه ، ولكن لا يجوز أن تدعو لهم بأن يوفقهم الله – تعالى – مع البطانة الأخرى ، التى تدلهم على الشر ، وتعينهم عليه

ومن ذلك أن ندعو لجميع طلاب العلم بالنجاح ، سواء منهم من اجتهد واستذكر ، ومن لعب وهجر الكتب ،

وهذا دعاء غير جائز ؛ إذ الدعاء المستند على العلم أن ندعو لمن اجتهد واعتكف على كتبه أن يوفقه الله ﷻ ويذكره ما نسى ، ويأخذ بقلمه إلى الصواب ، وعلى ذلك يتبين لنا أن الدعاء يستند على العلم بما يرضى الله – تعالى – فندعو به ، وما لا يرضيه يجب علينا ألا ندعو به فلو أجاب الله دعاءنا فيه لفسدت السماوات والأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ،

عدم الاستعجال عند الدعاء

من أهم ما يستند عليه الدعاء فى الإسلام عدم الاستعجال ، وهو الذى فسره النبى ﷺ بقوله : يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لى والإنسان لضعفه يكون صريع حاجته ، يود أن يدعو الآن ، فيستجاب له الآن ، والمؤمن بخلاف ذلك ؛ إن له حاجة بلا شك وهو ضعيف لأنه إنسان ، لكن هناك فرق بين ضعيف بلا سند ، وضعيف له سند ، وهو المؤمن ، الذى يستند على إيمانه ، وحسن ظنه بالله ربه ، الذى يدبر الأمر ، وقد رأى يوسف عليه السلام أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، وحين قصها على أبيه وعده بفتح الله له واجتبائه إياه ، وأنه سيتم نعمته عليه ، وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم ، وإسحق قال تعالى – : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ يوسف: ٦ وقد مرّ ما مرّ به عليه السلام من محنته فى البئر ، ومن بيعه ، ومن سجن لبث فيه بضع سنين ، وبعد عشرات السنين تحققت رؤياه ، وقال

: ﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يوسف: ١٠٠

فما قال يوسف عليه السلام فى مرحلة من مراحل حياته ومحنه : أين تحقيق رؤياى !

وهناك فرق بين أن تطلب طلباً من أحد من الناس ، وبين أن تطلبه من رب الناس ، فإن الرجل من الناس قد يتأخر عنك لظرف خارج عن إرادته ، قد يكون عاجزاً وأنت لا تدرى ، وقد يبدو له بداء ، والله ﷻ لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، والبدء بالنسبة إليه محال ، إنما يكون تأخيره لحكمة ، والمؤمن بالله يعتقد بأن الله ﷻ هو الحكيم ، وقد قال وقوله الحق : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ البقرة: ٢١٦

وقد يسأل العبد مسألة يراها بالنسبة إليه هى السعادة ، ولو تحققت له لوجد فيها التعاسة كلها ، ولو اطلع على ذلك لقال : يا رب إنى ندمت إذْ سألتك إياها ، أستغفرك وأتوب إليك ، لكنه جاهل بما سيكون ، كالذى يلح فى طلب الولد ، ويشقيه ذلك ، يقول : أعطانى ربى كل شىء ، وبقى الولد ، يا رب ... يا رب ... ، ولو علم أن هذا الولد المرجو سيكون عاقاً معربداً مسرفاً ، وسوف يضيع المال الذى جمعه أبوه ، ويرهقه لما تمناه ، يذكرنا ذلك بالعجوز التى أرهقها ولدها الشاب ، فتمنت أن لو أجهضته حين حملت به ، بل تمنت موته يوم مرض صغيراً ، وكانت

ترجو فداءه بروحها ، وكم من مشرع تمناه صاحبه ، فلما أثمر الويل تمنى أن لو صرفه الله عنه قبل أن يضع لبنته الأولى .

ولو علم طالب الولد بإلحاح أن هذا الولد سيقتله لما تمناه ؛ لأن السوّى من الناس لا يطلب أداة قتله ، وإنما يطلب وسيلة تعينه ، وعصا يتوكأ عليها ، وسنداً يركن إليه ، فى تلك الحياة التى يحتاج فيها إلى أكثر من سند

وكذلك طالب المال الوفير ، لو علم أن وفرة ماله ستؤدى إلى الطغيان ، والفساد لسأل الله الكفاف ، والله ﷻ لم يقل : اسألونى الكفاف ، وإنما قال :

﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن ﴾ النساء: ٣٢

ومن قديم قال أحد العلماء لولده : اسأل الله العافية من حيث يعلمها لك ، فقد تكون عافيتك فى فقرك ، وقد تكون عافيتك فى مرضك ، فخلاصة القول أن العبد يدعو الله ، ويسأله الخير ، وهو يعمل من أجل تحقيق

دعوته ، فيبذل أقصى ما لديه من طاقة تاركاً النتيجة لحكمة ربه ، مولاه ، الذى يدبر الأمر ويعلم ما يصلحه ، فإن كان الذى يصلحه فيما سأل أجاب الله دعاءه ؛ لأن الله – تعالى – لا يعذب عباده ، وقد قال عز من قائل : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ النساء: ١٤٧

وإن كان الذى دعا به ليس فيه صلاحه باعد الله بينه وبينه كما باعد بين المشرق والمغرب ، أما وقد وعد النبى ﷺ العبد الداعى بإجابة دعائه ما لم يقل : دعوت فلم يستجب لى ، فإن العدول عن هذا القول الذى صار مع الأسف شائعاً بعد ما يستند عليه الدعاء ، والله ﷻ يفعل ما يشاء .

الاستجابة

بين الاستجابة والإجابة جبل عظيم ، أوله الاستجابة ، وآخره الاستجابة ، وبين الاستجابتين إجابة ، دليل ذلك قول الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦

فقوله ﷻ : (فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى) بيان لما يستند عليه الدعاء ، إذ على الداعى أن يكون مستجيباً لنداء الله ، فهو من المصلين ، ولما كلفه الله ﷻ به من عباده ، ومن حسن معاملة بينه وبين الناس الذين هم عباد الله ، فتارك الصلاة حين يدعو الله ﷻ فعلى أى وجه يدعوه ، وهو يسمع النداء ولا يجيب

والمفطر فى رمضان عمداً بغير عذر كيف يدعو الله ويكون دعاؤه معتمداً على شىء ، وكذا الغنى الذى بلغ ماله النصاب ، وهو لا يخرج زكاة ماله ، ومن استطاع الحج ولا يحج ، ومن يسىء إلى الناس ، ويغشهم ، ويأكل بالباطل أموالهم ، ويعتدى على الضعفاء منهم ، وقاطع الأرحام بأى وجه يدعو رب الأنام ، ومسىء الجوار ، وكل صاد عن سبيل الله ، كيف يلتمس منه ﷻ إجابة لدعائه ، والذى يذهب إلى العرافين ، كيف يستجيب الله له ، ولم تنفع له صلاة مدة أربعين يوماً ، فضلاً عمن يصدقهم ، وقد حكم عليه بأنه كفر بما أنزل على محمد !

ومن ثم كانت الاستجابة تقطعه البدء والانطلاق ، فإذا دعا المستجيب ربه ، كان دعاؤه مستنداً على الاستجابة ، ونعما هى ، وهو لا يستجيب لله ﷻ كى يدعو ، فيجيب الله دعاءه ، وبعد الإجابة يرتد عن استقامته إلى خبيث الأعمال ، وإنما هو بعد الإجابة مستجيب لله ﷻ والدليل على ذلك قول الله – تعالى – لموسى وأخيه

هـارون – عليهما السلام – : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ يونس: ٨٩

فقد دعا موسى عليه السلام فقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ يونس: ٨٨

وأخبر الله ﷻ موسى وأخاه – عليهما السلام – بأن هذه الدعوة قد أجيبت ، وأمرهما بالاستقامة وهى دليل الاستجابة بعد إجابة الدعاء

أما ما عهده الناس بعضهم فى بعض بالتخلى والتولى بعد قضاء المصلحة ، فهذا قد يحدث مع بعض الذين لا يعلمون مع الله ﷻ يصلي ويصوم من أجل حاجة فإذا قضيت له الحاجة لا يصلي ولا صام ، هذا من الجاهلين ، وهو إلى العمى أقرب منه إلى الإبصار ؛ لأن المصلحة يقضيها لك الإنسان ، فتستغنى عنه ، ولكن كيف الغنى عن الله وهو وحده الذى بيده كل شىء ، إن أجاب دعاءك اليوم فكشف عنك شدة فمن يكشف عنك الشدة القادمة

إن من الناس من يقول لك : سوف تعود ، فلا غنى لك عنى ، أو كيف تفر منى ، وهنا ملكى ، وهناك ملكى ، وتستطيع أن تنأى عن وطنه كله ، وتمضى إلى وطن بعيد ؛ لا سلطان له فيه ، كما قال شعيب لموسى – عليهما السلام – : ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٢٥ ؛ لأنه صار فى (مدين) ولا سلطان لفرعون فيها

ولكن أين الفرار من الواحد القهار الذى السماوات والأرض جميعاً من ملكه ! لا شك أنك إذا كشف الله عنك كربة اليوم محتاج إليه ليشكف عنك كربة الغد ، أو كربة العام القادم ، فإن أبصرت تبينت الحقيقة ، وهى أنك فى حاجة دائمة إلى الله

مولاك ، الذى خلقك فعدلك فصورك فى أى شىء ما شاء ركبك ، ورزقك وهو خير الرازقين ، ورحمك وهو أرحم الراحمين .

لذلك كانت الاستجابة استقامة على منهج الله على معالمها ، فى المضى فى نورها يكون الدعاء ويكون الإجابة ، وهنا قد يتردد سؤال : وهل يعنى ذلك أن الإنسان لا يخطىء أبداً ، حيث إن ظاهر القول يدل على ذلك ، والجواب : أن هناك فرقاً بين مخطىء يتوب ، ومخطىء يتمادى فى الخطأ ؛ فلا يعرف إلى التوبة من سبيل ، والله ﷻ يقبل توبة التائبين ، وفتح أبوابه فى وجوه المسرفين فى المعاصى ، فقال وقوله الحق : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر: ٥٣

وحين يقول المذنب صادقاً : تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وهو عازم على التوبة النصوح تقبل الله توبته ، والقبول فى ذاته إجابة لمن وفقه الله إلى الصدق فى التوبة ، فإن وقع فى المعصية بعدها ، وهو غير مصر على اقتراف الذنب وتاب وجد باب الله أوسع الأبواب

اللهم إنا نسألك أن تهدينا إلى صالح الأعمال ،وأن تبصرنا بأمر ديننا ،وأن تعفو عنا ،وترحم ضعفنا ،وأن تجبر كسرنا،أنت ربنا ،ومولانا لا حول ولا قوة إلا بك وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

بقلم
أ.د / مبروك عطية
الأستاذ فى جامعة الأزهر الشريف

الفهـــرس

الموضـــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة

- المقدمة ٣
- الفصل الأول

روح العبادة المشهورة ٩

- الفصل الثاني

العبادة التي لم ينص عليها الفقهاء ٦٣

- الفصل الثالث

روح الدعاء ٨٣

رقم الإيداع

١٧٧٦١ / ٢٠١٢